



نادي القلق

جلال الشايب



الدار المصرية اللبنانية



لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا



لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا

الشايب، جلال.

نادي القلق / جلال الشايب. - ط 1.

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2020.

136 ص؛ 20 سم.

تدمك: 6 - 244 - 795 - 977 - 978

1- القصص العربية.

أ- العنوان. 813

رقم الإيداع: 2019/ 16271

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 202 23910250 +

فاكس: 202 23909618 + - ص. ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2020م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحتته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

نادي القلق

جلال الشايب

1919

دعوت
و قلم

مجله

مجله

إهداء

إلى أمي،

إسمت إبراهيم صبري،

من وهبتي الحياة،

وأحبتني أكثر مما أحبت نفسها.



المحتويات

9	نادي القلق.....
17	هدفك في الحياة.....
23	التعلم من الفشل.....
29	كيف تكون قارئاً نهماً؟.....
33	زكي نجيب محمود وكيف يكون الكاتب؟.....
37	حياة واحدة لا تكفي.....
43	اكتشف ذاتك.....
47	يوماً أو بعض يوم.....
53	أن تكون متواضعاً.....
59	نقطة التحول.....
63	وصفة سحرية للسعادة.....
67	أن تكون بسيطاً.....
73	لا تستسلم أبداً.....

- 77 عبرة من سور الصين العظيم
- 81 الإحساس بالآخر
- 87 أحمد خالد توفيق والتصالح مع النفس
- 91 هؤلاء علموني
- 97 ونستون تشرشل وكيف يكون القائد؟
- 103 كاتب وأربع قضايا
- 109 البائع
- 115 السعادة الحقيقية
- 121 دروس عملية في الحياة
- 127 أن تعطي دون مقابل
- 131 ضرورة أن نخطئ

نادي القلق

تزوج والدي وهو في الخامسة والأربعين من عمره، وأنجبني وهو في التاسعة والأربعين، فكان بيني وبينه هوة زمنية واسعة، وكنت أشعر دائمًا بأن هناك اختلافًا كبيرًا بيني وبين أقراني في المدرسة، فوالدي عجوز وشعره أبيض، وفي عمر أجدادهم، بينما آباؤهم شباب وبصحة جيدة، لكن الإحساس المؤلم كان الخوف من أن أفقده وأنا صغير في السن، أن أصبح يتيمًا. كنت أقلق بشدة، عندما أسمع كريمة مختار تقول لابنتها منى جبر في فيلم «الحفيد»: «أولاد الشيبية يتامى يا أحلام». أتذكر وأنا في التاسعة من عمري أن قلت له، وأنا أرتجف من البكاء: «أنا خايف تموت»، فاحتضنني بقوة وقال: «مقدرش أوعدك ألا أموت، بس اللي أقدر أوعدك به، إني أعلمك تقدر تعتمد على نفسك».

ومع ذلك كان هاجس الخوف من الموت يطاردني باستمرار، كنت أشعر دومًا بأنني سأفقده فجأة، قبل أن أتخرج من المدرسة، ويزداد هذا الشعور ويشتد قلقي عندما كان يمر بأزمات صحية، كنت أخاف أن يصاب بمرض السرطان، وأن يصارع هذا المرض اللعين لفترة طويلة. وكنت أخاف من أن يتألم أمامي، ولا أستطيع أن أفعل شيئًا

من أجله، أو أن أكون عاجزاً عن دفع تكاليف علاجه. كان مشهد عمي الأكبر، وهو نائم على فراش مرضه الأخير، يتوجع من الألم، دائماً يطارده مخيلتي، وكان أبي نفسه يدعو الله أن يموت بصحته واقفاً على قدميه، ويقلق جداً عندما يقرأ في الصباح في جريدة الأهرام خبراً عن وفاة فنان مشهور أو شخصية معروفة، بعد صراع طويل مع المرض، فكنت أقص تلك الأخبار من الجريدة قبل أن يقرأها، وظللت أعاني من هذه المخاوف والهواجس، لأكثر من خمسة وعشرين عاماً. وفي النهاية توفي والدي وهو في الرابعة والثمانين من عمره، وكنت في الخامسة والثلاثين، ولم يصارع المرض كما دعا ربه، بل مر بأزمة صحية بسيطة، قبل أن يموت بثلاثة أيام فحسب، ولم أشعر أبداً أنها أزمة خطيرة، وفي يوم وفاته تناولت معه الإفطار، كما نفعل عادة في أيام العطلات، ومات بعدها بساعتين على فراشه، دون أن يتألم.

هل سبق أيها القارئ أن مررت بالتجربة نفسها: سببت لنفسك الذعر حول شيء ما لم يحدث مطلقاً؟ أو أصبت نفسك بحالة من الهلع حول شيء ما، اعتقدت أنه قد يحدث يوماً، إلا أنه لم يحدث أبداً؟ أو أخبرت نفسك قصصاً مخيفة ستحدث لك في المستقبل البعيد؟ أو تصورت ما ستفعله، إذا خسرت وظيفتك، أو أصبت بمرض عضال، أو فقدت شخصاً عزيزاً عليك؟ إذا كنت قد فعلت ذلك، أو تفعله الآن، فمرحباً بك في نادي القلق، الذي ربما يكون النادي الأكبر على سطح كوكب الأرض، فجميع البشر تقريباً أعضاء به. لكن هناك بالتأكيد بعض الأذكفاء، الذين استطاعوا أن يفروا من هذا النادي،

وبالطبع توجد مستويات مختلفة للعضوية، فهناك الأعضاء العاملون الذين يتدربون يوميًا، وهناك الأعضاء الذين يستخدمون مهاراتهم في القلق، في المناسبات فقط.

فقط فكر في الأمر للحظة، ثم أعد النظر في حياتك. ألم تقل كثيرًا منذ خمسة أعوام مثلًا تجاه الأشياء ذاتها، التي تقلقك اليوم؟ ألم تكن تقلق بشأن صحتك، أو أسرتك، أو مهنتك، أو نجاحك، أو مدخراتك. وانظر إلى حالتك الآن، فأنت لا تزال هنا، وربما تقلقك الأشياء ذاتها، على الرغم من كل قلقك السابق. وماذا حدث؟ ربما لم يحدث شيء، وربما تعثرت في الطريق هنا أو هناك، ولكن ليس كثيرًا، أليس كذلك؟ أما إذا كان قد حدث شيء خطير بالفعل، فغالبًا أنك لم تقلق بشأنه من قبل، ومن المحتمل أنه كان شيئًا مختلفًا تمامًا عن تصورك.

أعود إلى قصتي، قبل وفاة والدي بثلاثة شهور، حدث الشيء الذي لم أكن أتوقعه أبدًا ولم أكن أقلق بشأنه مطلقًا، ماذا حدث؟ أصيبت والدي بجلطة في المخ، كانت بصحة جيدة، ولا تعاني من أية أمراض، ومع ذلك أصيبت بسكتة دماغية مفاجئة، فتغيرت حياتي تمامًا، أكاد أقول إن حياتي منذ تلك اللحظة قد اختلفت مائة وثمانين درجة، وقد يكون هذا هو السبب في أنني أثناء أزمة والدي الصحية الأخيرة، لم أشعر أبدًا أنها خطيرة، أو يمكن أن تؤدي إلى وفاته؛ لأن كل تركيزي، في هذه الفترة كان منصبًا على علاج والدي، التي فقدت القدرة على تحريك الجانب الأيسر من جسدها، ولم تعد تستطيع المشي تقريبًا.

السؤال هو: هل ساعدني القلق في أي شيء؟ هل جعل حياتي أكثر سهولة، بأي شكل من الأشكال، منذ أن كنت طفلاً، حتى تلك اللحظة؟ الإجابة هي النفي، إن القلق لم يجعل رحلة حياتي أسهل، ولو بدرجة طفيفة. بل على العكس تماماً، فكل ما فعله القلق هو أنه جعلني أشعر بالتعاسة دون داع. عندما أفكر في كل العناء، الذي كان بإمكانني تفاديه إذا لم أقلق إلى هذا الحد، وكل الأوقات التي أضعتها في القلق والخوف، أندم على هذا العناء وأتحسر على تلك الأوقات. فقد قلقت، وقلقت، وماذا حدث بعد ذلك؟ فقد مرت السنون، ولم يمت والدي وأنا صغير، ولم يصب بأي أمراض خطيرة، وتوفي بصورة طبيعية، بعد أن تجاوز الرابعة والثمانين.

بفضل تلك الخبرة الطويلة المؤلمة، اكتشفت أن كثيراً من الأشياء التي نقلق بشأنها في حياتنا لا تحدث أبداً، وأن الكثير من قلق فترة المراهقة والشباب ليس حقيقياً، وأنا يمكن أن نطرد تلك المخاوف بالتوقف عن التفكير فيها، وتعلمت أيضاً ألا أقلق من شيء ليس في استطاعتي تغييره.

لكن، أيمكننا أن نتوقف بسهولة هكذا عن القلق؟ لا بالتأكيد، ذلك ليس بمقدورنا، ليس بمثل هذه البساطة؛ فجميعنا يعلم أنه لا جدوى من أن نقول لأنفسنا أن نتوقف عن القلق. فنحن نقول لأنفسنا، المرة تلو الأخرى، بأن نتوقف عن القلق، وبعد ذلك نستمر بالقلق. رغم أننا نعرف أن القلق شيء سلبي وغبي ومرهق، كما أنه مضيعة تامة للوقت،

بالإضافة إلى أنه لا يأتي من ورائه أي خير على الإطلاق. إذا فماذا
بوسعنا أن نفعل؟ هل من طريقة ناجحة للتوقف عن القلق؟

عن كيفية التوقف عن القلق، أصدر الكاتب الأمريكي ديل
كارنيجي كتابًا مهمًا بعنوان: How to Stop Worrying and Start
Living، نشر للمرة الأولى في بريطانيا عام 1948، وتتبع طبعاته
وتنوعت ترجماته، وعرف في الترجمة العربية باسم «دع القلق وابدأ
الحياة»؛ ليصبح من أشهر وأكثر الكتب مبيعًا في العالم، وقد استغرق
تأليفه ست سنوات. اعتمد ديل كارنيجي في كتابه على سرد عشرات
القصص الحقيقية التي قرأ عنها، والأمثلة التي قابلها بنفسه في
الحياة، لهؤلاء الذين استطاعوا أن يحطموا القلق لينطلقوا في الحياة.
وبأسلوب قصصي مشوق، بعيد عن المصطلحات العلمية الجافة، بين
كيف يمكن للقلق أن يفسد على الإنسان حياته، وكيف يمكننا التوقف
عن ممارسته.

من واقع خبرته الكبيرة، وجد ديل كارنيجي أن هناك طريقة واحدة
للتعامل مع القلق، وهي أن تعيش في حدود يومك، لا تفكر في
الأمس؛ لأن تفكيرك وحزنك عليه لن يغير من أمره شيئًا، ولا تفكر
طويلاً في الغد وتغتم له، فأنت لا تستطيع أن تعبر جسرًا قبل أن تصل
إليه، وهمك الشديد بالغد لن يورثك إلا القلق والخوف والمرض.

قال ديل كارنيجي في كتابه: «أوصدوا أبواب الماضي، ودعوا
الماضي يدفن موتاه، وأغلقوا أبواب المستقبل، الذي لم يولد بعد.

إن عبء الغد، الذي يضاف إلى الأمس، والذي نتحملة اليوم، سيؤدي بنا إلى الانهيار. أغلقوا أبواب المستقبل بقوة، مثلما فعلتم بالماضي، فالمستقبل هو اليوم، ليس هناك غد، فيوم خلاص الإنسان هو الآن».

هل يقصد ديل كارنيجي أن يقول إن علينا ألا نبذل أي جهد للتفكير في الغد؟ كلا، فهو يقصد أن أفضل طريقة للاستعداد للمستقبل، هي أن تركز نشاطك وحماسك؛ للقيام بعمل اليوم على خير وجه، وبذلك تكون قد فكرت في الغد واستعددت له دون قلق ولا خوف.

في المسيحية صلاة، تقول: «أعطنا خبزنا كفاف يومنا»، هذه الصلاة تعلمنا أن نطلب خبز اليوم فقط؛ فخبز اليوم هو الخبز الوحيد الذي ستأكله، فلا تتذمر من الخبز البائس الذي تناولته في الأمس، ولا تقلق كيف ستحصل على الخبز في الغد. وذات يوم، تحلق الناس حول المسيح، فخطب بهم بضع كلمات مهمة للغاية، ظلت تدوي عبر العصور: «فلا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفي اليوم شره».

قد يرفض البعض تلك الكلمات: «فلا تهتموا للغد»، ويقولون إننا يجب أن نفكر بالغد، وأن ندخر المال، وأن نضمن مستقبل أولادنا. أجل، اهتموا بالغد، بوعي وانتباه وتخطيط، لكن لا تقلقوا بشأنه. فما الذي يجعل الأطفال سعداء؟ ما يجعلهم سعداء أنهم يعيشون اللحظة فحسب، لا يندمون على ما جرى بالأمس، ولا يقلقون مما سيحدث في الغد، والذي يجعل الكبار تعساء هو العكس.

حطم القلق الموجود بداخلك، قبل أن يدمرك ويصنع منك شخصًا
تعيّسًا، وأفضل طريقة لذلك، هي الانشغال عما يخيفك ويشير قلقك
بالاستغراق في ممارسة أي عمل، يتطلب التركيز والتفكير والابتكار؛
لأنّ الذهن البشري مهما كان عبقريًا لا يستطيع أن ينشغل بأكثر من أمر
واحد، في وقت واحد. أما إذا واجهت أية مشكلة، ووجدت نفسك
قد استسلمت للقلق والخوف، فإن أفضل شيء تفعله، هو أن تسأل
نفسك: ما أسوأ احتمال يمكن أن يحدث؟ ثم جهز نفسك لقبوله، ثم
باشر بهدوء العمل لتحسين ذلك الاحتمال، وسوف تكتشف أنك غالبًا
قد تفاديت أسوأ الاحتمالات؛ لأن مجرد قبولك له قد أعاد لك صفاء
تفكيرك، فتحررت لحل المشكلة ونجحت في ذلك، أو في معظمه.
لن أقول دع القلق، بل أقول: حطّم القلق وابدأ الحياة.

هدفك في الحياة

كنت في التاسعة من عمري، عندما تخرج أخي الأكبر في كلية الهندسة، قسم العمارة، وقبل أن يكمل العام على تخرجه، أصيب بمرض نادر، يؤدي للموت شيئًا فشيئًا، المرض نفسه الذي أودى بحياة الفنان محمد فوزي، ففضل أخي أن يموت واقفًا على قدميه، وانتحر من فوق برج القاهرة، وهو في الثالثة والعشرين من عمره. ومن شدة الصدمة والحزن، كبرت والدتي عشر سنوات في ليلة واحدة، وتمحور كل أملها في الحياة في شخصي أنا، ففرضت عليّ حلمًا لم يكن حلمي الشخصي، أن أدخل كلية الهندسة وأصبح مهندسًا معماريًا لأكمل مشوار أخي المتوفى. ورغم أنني كنت متفوقًا في الرسم، وكل من يرى رسوماتي وأنا صغير، كان ينصحني بدخول كلية الفنون الجميلة، فقد قتلت هذه الفكرة داخلي تحقيقًا لرغبة والدتي، حتى أنني لم أتقدم لاختبار قدرات الفنون أثناء امتحانات الثانوية العامة. وحدث أنني لم أستطع أن أحقق المجموع المطلوب لدخول كلية الهندسة، فلم ألتحق بها، ولا بكلية الفنون الجميلة أيضًا. ودخلت كلية العلوم تحقيقًا لرغبة والدي هذه المرة، الذي كان مخترعًا، ويشغل بمجال الاختراعات والابتكارات. وبدأت الدراسة وانتظمت في كلية العلوم جامعة القاهرة.

وبعد شهرين من الدراسة، وفي يوم كئيب موحش، وجدت نفسي جالسًا على مكتبي، محاطًا بكتب الفيزياء والكيمياء والرياضيات البحتة، محددًا خارج النافذة، وجالت بخاطري تلك الأفكار: أنا إنسان بائس، أنا إنسان حزين، لِمَ أنا بائس وحزين هكذا؟ ما الذي أفعله؟ إنني لا أرغب في أن أكون معلمًا للفيزياء أو للكيمياء في مدرسة، أو باحثًا في المركز القومي للبحوث، أو أستاذًا في كلية العلوم. وبعد ذلك، سألت نفسي: ما المهنة التي يمكن أن أحبها بشدة، لدرجة تجعلني مستعدًا للعمل بها مجانًا، ومع ذلك يمكنني بالفعل أن أتلقى أجرًا جيدًا أو مناسبًا عنها؟

إنها ليست مهنة معلم في مدرسة إعدادية أو ثانوية بالتأكيد، ليست تلك هي المهنة المناسبة لي. ثم أعدت التفكير مرة أخرى في جميع الأشياء، التي قمت بها في حياتي، والأشياء التي كانت تجعلني أشعر بأقصى سعادة، ثم خطرت لي الإجابة فجأة: إنه الفن. لقد كانت رسومات الكاريكاتير، التي كنت أرسمها في العطلة الصيفية، واللوحات الفنية، التي كنت أعرضها في فصول ومعارض المدرسة، تجعلني في قمة السعادة والشعور بالمتعة. كيف كنت بهذا الجهل؟ هأنذا في السنة الأولى من سنوات الدراسة الجامعية، واكتشفت لتوي أنني أسير في الطريق الخطأ، ولا أفعل الشيء الصواب. لقد كان الشيء أمامي طوال الوقت، ولكنني كنت أريد أن أحقق أحلام أبي وأمي، وتناسيت غافلاً أو متعمدًا أحلامي أنا.

وفي غمرة شعوري بالنشوة والبهجة، تجاه التبصر الجديد الذي توصلت إليه، تقدمت بأوراقتي إلى إحدى المدارس الحكومية لأعيد الثانوية العامة من المنزل، وقد اتخذت تلك الخطوة الضخمة من وراء والدي، حتى لا يمنعني من تنفيذها، أو يدفعني للتفكير فيها مرة أخرى. ورغم أن هذا القرار كان سيكلفني سنة إضافية، قبل أن أتمكن من التخرج في الجامعة، أو في الواقع سنتين إضافيتين؛ لأن الدراسة بكلية الفنون الجميلة تستغرق خمس سنوات، وليس أربع فحسب كما في كلية العلوم، إلا إنني اتخذت القرار الصعب بمفردي، ونجحت في الالتحاق بكلية الفنون الجميلة، واكتشفت أنني قد اتخذت القرار السليم، عندما وجدت نفسي أستمتع بكل دقيقة أمضيها في مراسم الكلية ومدرجاتها، بل وتفوقت في الدراسة وكان ترتيبي الأول على دفعتي، على مدى سنوات الدراسة الخمس، وعينت معيدًا بالكلية، وحصلت على درجتي الماجستير والدكتوراه، وأصبحت في النهاية مدرسًا بالكلية، أستمتع بعمل ما أحب.

كل إنسان خلق من أجل هدف محدد في الحياة، وتحديد هذا الهدف وفهمه، ربما كان هو العمل الأكثر أهمية الذي يقوم به الأشخاص الناجحون. إنهم يقضون الوقت في محاولة فهم الهدف الذي تم خلقهم من أجله، وبعد ذلك يسعون وراء تحقيق هذا الهدف بكل ما أوتوا من قوة ورغبة وحماس. بدون تحديد هدفنا في الحياة، يكون من السهل أن ننحرف عن مسارنا في رحلة الحياة. يكون من

السهل أن نهيم ونضل ولا ننجز إلا أقل القليل. الإنسان بلا هدف يكون مثل سفينة بلا دفة، كلاهما ينجرف ولا يصل إلى شيء، وكلاهما سينتهي به الحال إلى شواطئ اليأس والهزيمة.

أجرى عالم الحشرات والكاتب الفرنسي جان هنري فابر (1823-1915) تجربة مثيرة لمجموعة من يرقات الفراشات. قام فابر بترتيب الفراشات بعناية في دائرة حول حافة إناء، بحيث تلمس فراشة المقدمة الفراشة الأخيرة، وبذلك تشكل الفراشات دائرة مكتملة. وفي منتصف الإناء وضع أوراق الصنوبر التي تمثل طعام الفراشات. بدأت الفراشات الدوران حول الإناء المستدير، وأخذت في الدوران والدوران، ساعة بعد ساعة، ويوما بعد يوم، وليلة بعد ليلة. لقد دارت حول الإناء لسبعة أيام وسبع ليال كاملة. وأخيراً، سقطت ميتة من الجوع والتعب. لقد ماتت من الجوع فعلياً، بينما كانت هناك وفرة من الطعام على بُعد سنتيمترات قليلة فحسب؛ لأنها خلطت بين النشاط والهدف.

العديد من الناس يرتكبون الخطأ نفسه، ونتيجة لذلك يحصدون قدرًا ضئيلاً فحسب من المحصول الذي تقدمه الحياة. ورغم حقيقة وجود ثروة غير محدودة في متناول اليد، فإنهم لا يحصلون منها إلا على أقل القليل؛ لأنهم يتبعون بشكل أعمى، ودون تساؤل، الحشد الذي يدور في دائرة، لا تؤدي إلى أي مكان. ولكن مع وجود الهدف، يكون كل شيء في الحياة في موقعه الصحيح.

إن سعينا وراء الهدف يعني أننا نقوم بالعمل الذي نحب القيام به، ونقوم بما نجيد عمله، وننجز ما هو مهم بالنسبة لنا. وبمجرد أن نعرف ما هو هدفنا في الحياة، يجب أن نرتب جميع أنشطتنا بحيث تتفق مع هذا الهدف وتدور في فلكه. وينبغي أن يكون كل شيء نفعله بمثابة تعبير عن هدفنا. فإذا كان هناك أي نشاط لا يتفق مع تلك المعادلة، فلا ينبغي أن نمارس هذا النشاط.

لقد خلقنا بنظام توجيه داخلي، أشبه بنظام تحديد المواقع العالمي (GPS)، يخبرنا عندما نكون على الطريق نحو هدفنا في الحياة، أو عندما نحيد عن هذا الطريق، من خلال قدر ما نشعر به من رضا وسعادة، فالأشياء التي تسبب لنا أكبر قدر من الرضا والسعادة، تكون متفقة ومنسجمة مع هدفنا في الحياة.

التعلم من الفشل

أحياناً يمكن لعبارة واحدة أن تحدث تغييراً كبيراً في حياتك، قد تكون عبارة قرأتها في كتاب ما، أو عبارة قيلت لك، ويبدو أنها انطبعت في ذهنك، وأصبحت قوة دافعة لك. حدث هذا معي، كنت في الثانية عشرة من عمري، وكنت في زيارة لعمي الأكبر، الذي كان مريضاً بسرطان الرئة، وفي أيامه الأخيرة، كان يتوجع بشدة من الألم على فراشه، تقدمت لأصافحه، أراد أن يعلمني شيئاً لا أنساه، فأمسك بيدي بقوة، وطلب مني أن أجلس إلى جواره وأنصت جيداً لما سيقوله، ثم طلب أن أحضر زجاجة كولونيا، كانت موجودة على رف التسريحة، أحضرتها، كان اسم الكولونيا (4711)، قال: «اسم غريب لكولونيا، أليس كذلك؟»، فهزئت رأسي بالإيجاب، ثم قال: «بالتأكيد، هذا الرقم ليس رقم عنوان الشركة التي أنتجت الكولونيا، ولا هو مجرد رقم من الأرقام، من المؤكد أن هذا الرقم هو عدد التجارب والمحاولات الفاشلة، التي سبقت وصول علماء الشركة لتركيبة سائل هذه الكولونيا»، ثم قبض على يدي بكل ما يملك من قوة، وقال لي بالإنجليزية بصوت هامس متحشرج من شدة الألم: try and try، ثم شرح المعنى الذي يقصده قائلاً: «حاول وحاول ثانية

وكرر المحاولة، ولا تيأس أبدًا، الفشل لن يمنعك من الوصول إلى النجاح، ولكن الاستسلام هو الذي سيمنعك منه».

لا زلت أذكر هذه الكلمات البسيطة المؤثرة حتى الآن، ولا زلت أتذكر ملامح وجه عمي، وهو ينطق بها، رغم مرور أكثر من ثلاثين عامًا على تلك اللحظة، أراد الرجل أن أكون مثابرًا ولا أخشى الفشل، فالنجاح لا يأتي فجأة، النجاح هو نتيجة للكثير من المحاولات الفاشلة، والكثير من العمل الشاق.

الفشل هو أحد أكثر تجارب الحياة البشرية نفعًا وإفادة؛ لأن الفشل يعطينا الدروس المطلوبة التي يجب أن يتعلمها المرء، قبل أن يبدأ مشواره نحو النجاح، وتلك الدروس لا يمكن أن يعطيها أي معلم آخر غير الفشل. دائمًا ما يكون الفشل نعمة في شكل نقمة، بشرط أن نتعلم منه درسًا مفيدًا، لم نكن نستطيع أن نتعلمه، أو نحصل عليه دون حدوث الفشل.

وهناك سبب منطقي وراء الحكمة القديمة، التي تقول بأنه لا يعرف حلاوة النجاح إلا من تجرع مرارة الفشل، فلن يستطيع الإنسان أن يقدر قيمة النجاح، ما لم يمر بحالات مختلفة من الهزائم القاسية والنكبات والإحباطات، التي تصدمه؛ حتى يظن أنه لن تقوم له قائمة بعد ذلك. يقول الأديب الهندي الكبير رابندرانات طاغور: «الفشل هو مجموعة التجارب التي تسبق النجاح».

وتقريبًا، ما من أحد عرف طريق النجاح، إلا وقد خاض تجربة سابقة واحدة على الأقل من الفشل. بل ربما وقف متحسرًا، ونظر إلى أحلامه وهي تتبخر وطموحاته وهي تتحطم على صخرة الفشل. لكنه اضطر إلى مواجهة الفشل والإحباط؛ حتى تعلم كيف يعاود النهوض من عشرته.

القائد الفرنسي العظيم نابليون بونابرت واجه هزائم عديدة، قبل أن يصنع لنفسه المجد والمكانة الكبيرة التي حققها. والمخترع الأسكتلندي ألكسندر جراهام بيل واجه الفشل أيضًا، لسنوات عديدة، قبل أن يخترع الهاتف، الذي يتيح للناس الاتصال عبر مسافات بعيدة. والأخوان رايت حطما عديدًا من النماذج، وواجهها فشلًا كبيرًا وسخر الناس منهما، قبل أن يتمكنوا من اختراع أول طائرة، ترتفع عن سطح الأرض وتحلق في الهواء.

والمخترع الأمريكي توماس إديسون واجه الفشل تلو الفشل، أكثر من ألف مرة، قبل أن يصنع المصباح الكهربائي، وقد واجه الفشل نفسه قبل أن يصنع الفونوغراف، الذي يقوم بتسجيل الصوت البشري على أسطوانات ويعيد إنتاجه. وهو القائل: «العبقرية عبارة عن واحد بالمئة إلهام، وتسعة وتسعون بالمئة جهد».

ورائد صناعة السيارات الأمريكي هنري فورد، واجه الفقر والموت جوعًا، قبل أن ينجح في إنجاز أول سيارة تدار بمحرك، ولم تكن هذه نهاية مشكلاته، بل أنفق سنوات طويلة من حياته، في ابتكار موديل السيارة الشهير (T)، والذي أكسبه نجاحه الكبير وثروته الضخمة.

في الحياة، لا يهم عدد المرات، التي تعرضنا فيها للسقوط، بل ما يهم هو عدد المرات التي استعدنا فيها وضعنا، واستطعنا أن ننهض ونتقدم؛ حتى نصل إلى أهدافنا في النهاية.

بالتأكيد، معظمنا يحلم بحياة بلا معوقات، وكلنا يريد التحرر من القيود، التي تفرض علينا في الحياة. من منا لا يتمنى أن ينجح في كل تجربة يصادفها، وينجح في كل عمل يقوم به؟ لكن، وكما ندرك جميعًا، ليس هكذا تكون الحياة؛ فهناك دائمًا معوقات يجب أن نتجاوزها، وعقبات لا بد وأن نتخطاها، ونكبات علينا أن ننهض منها.

كذلك تمر بنا أوقات، نواجه فيها عقبات جديدة مع كل خطوة نخطوها، وكلما سرنا في طريقنا، سيكون علينا دائمًا مواجهة احتمال الفشل والسقوط، وربما تصادفنا تلك الصعوبات في بداية الطريق، وغالبًا ما تأتي لحظات يهيمن علينا الفشل حتى نشعر بالعجز التام عن مواجهته، والتحدي الذي سيكون علينا مواجهته، في تلك اللحظات الصعبة، هو أن نستجمع إرادتنا، كي ننهض من عثرتنا، ونقف على قدمينا، ونفض عن أنفسنا أحاسيس الهزيمة، ونداوي كبرياءنا المجروح، ونستعيد ثقتنا بأنفسنا، ونتقدم إلى الأمام.

لكي نحقق النجاح في حياتنا، وبالتالي نحقق ذاتنا، علينا أن نواجه إحباطاتنا وحالات فشلنا التي نصادفها في الحياة، وأن نعي الدرس من كل حالة إحباط، وكل حالة فشل ونتعلم منها. ليس الشخص الحكيم

بمن لا يخطئ أبدًا، فكل ابن آدم خاطئ، لكن الحكيم هو من يستفيد من خطئه، ويتعلم من فشله، وينهض من عثرته، ويتقدم إلى الأمام، وبالتالي يحوّل هزيمته إلى انتصار.

الأمانة تقتضي أن أقول لكم إنني قد بحثت لاحقًا عن أصل اسم كولونيا (4711)، ووجدت إنه بالفعل رقم العقار الذي كان مقرًا لشركة مولهينز، التي أنتجت هذا العطر في مدينة كولونيا الألمانية عام 1792، ويشهد هذا الرقم على الاحتلال الفرنسي للمدينة، والذي قام لأول مرة في تاريخ المدينة بترقيم العقارات. المعلومة كانت غير صحيحة، ولكن تظل الحكمة التي قالها لي عمي، قبل أن يغادر الحياة، صحيحة.



كيف تكون قارئاً نهماً؟

مكتبتي هي أعز شيء أمتلكه، أحب أن أحتفظ فيها بشكل الكتاب جديداً كما اشتريته، لا أحب ثني زوايا الصفحات، أو تدوين الملاحظات في الهوامش، أو تخطيط الفقرات المهمة بالقلم الرصاص، ولا أعير كتبتي لأحد مطلقاً، وكلما قرأت كتاباً تبين لي كم هي قليلة ومحدودة معرفتي، ورغم أنني أقرأ خمس ساعات كل يوم، أقرأ في الحمام، وأقرأ في عيادة الطبيب، وأقرأ أحياناً في الرحلات، رغم ذلك، أعرف إنني لن أتمكن من قراءة كل الكتب في مكتبتي، وأن هناك كتباً وروايات رائعة لن يتسنى لي مطالعتها أبداً.

لكن كيف أصبحت قارئاً نهماً، محبباً للقراءة، شغوفاً بها؟ وراء ذلك قصة لا بد أن أحكيها. كنت في العاشرة من عمري، وكنت مع الأسرة في ضيافة والد زوج أختي، في شقته بالإسكندرية، كان رجلاً طيباً على المعاش، وعمره يقترب من الثمانين، وكنت أحب أن أجلس معه في بلكونة الشقة، التي تطل على كورنيش شاطئ ميامي، أسمع منه حكاياته الطريفة، عندما كان موظفاً بالحكومة وذكرياته عن مدينة الإسكندرية في الزمن الجميل وأشياء أخرى كثيرة، وكان الرجل قد توفيت زوجته منذ سنوات وأصبحت متعته الوحيدة في الحياة هي

قراءة الصحف وحل الكلمات المتقاطعة، وكانت جريدة الأهرام تنشر في يوم الخميس من كل أسبوع، مربع كلمات متقاطعة كبيراً من عشرين صفّاً وعموداً، وتنشر حل الأسبوع الماضي في مربع صغير أسفل الصفحة.

فكرت في عمل مقلب لطيف، قمت بقص حل الأسبوع الماضي من عدد اليوم، وألصقته جيداً بعدد الخميس الماضي مكان حل الأسبوع الأسبق، ثم أخذت جريدة الخميس الماضي إلى الرجل، وعرضت عليه أن يساعدني في حل الكلمات المتقاطعة، سعد الرجل جداً أنني أشاركه الهواية نفسها، وأعد فنجان شاي، وجلسنا في مكاننا المفضل، البلكونة، وبدأنا في حل الكلمات المتقاطعة، يسألني، فأتظاهر بأنني أفكر في إجابة السؤال، وأحك جبیني بأصابعي، ثم أنظر إلى الحل الصحيح الذي ألصقته في أسفل الصفحة، وأقول الإجابة.

سؤال في سؤال، بدأ الرجل يشعر أنه أمام طفل في غاية الذكاء، طفل عبقرى، فلم أخطئ في إجابة سؤال واحد. وأحياناً حتى أتقن المقلب، كنت أتعمد أن أخطئ في إجابة أحد الأسئلة، ولكن خطأ بسيطاً جداً، مثلاً: مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» من 12 حرفاً؟ فبدلاً من أن أقول: «علي عبدالرازق»، كما هو مكتوب في الحل، أقول: «عمر عبد الرازق»، وكأنني أعرف الإجابة ولكن خانتني الذاكرة فحسب. أصيب الرجل بالذهول من براعتي في حل الكلمات المتقاطعة، فكيف لطفل عمره عشرة أعوام أن يعرف إجابة مثل هذا السؤال؟ أظن أن الرجل قد شعر بالحرج أمام موسوعية ثقافتى.

على الغداء، طلب الرجل أن يقول شيئًا، ثم وضع يده على كتفي، وكنت جالسًا إلى جواره، ونظر إلى والدي، وقال بفخر: «يا أحمد بك، ابنك هذا عبقرى في المعلومات العامة، وأتوقع له مستقبلًا باهرًا»، وقص عليهم ما جرى في الصباح. أسقط في يدي، ماذا أفعل الآن؟ هل أعتزف أمام الجميع بالمقلب الذي دبرته، وبدلاً من أن أكون عبقرى في المعلومات العامة، أصبح عبقرى في النصب؟ احمرّ وجهي خجلاً، ولم أنطق بكلمة.

وفي اليوم التالي، أخذني والدي إلى مكتبة دار المعارف بشارع سعد زغلول، واشترى لي عدة كتب من سلسلة «المعرفة» المشهورة، مكافأة لذكائي الخارق، اللطيف في الأمر، أن هذا الموقف أو المقلب دفعني للقراءة بعد ذلك، وأصبحت نهماً إلى القراءة والثقافة أو «دودة كتب» كما يقال، حتى أكون جديراً باللقب الذي أعطاه لي الرجل، وكنت لا أستحقه.

نجيب الآن عن السؤال المطروح في عنوان المقال: كيف تكون قارئاً نهماً؟ كيف تقرأ بكثرة؟ كيف لا تمل من القراءة؟ الجواب بسيط جداً أن يكون لديك حافز، مثل ذلك الحافز الذي دفعني للقراءة وأنا صبي صغير. الحافز هو السرف في الأمر إذا كان لديك حافز أصبحت القراءة أمراً مسلياً وممتعاً أما إذا فقدت الحافز أصبح الأمر مملاً ومتعباً.

ولن يكون هناك حافز ما لم يكن هناك هدف؛ لأن الهدف ما يجعلك تستمر في القراءة، ووجود هدف محدد هو الذي يدفعك للأمام، عندما تشعر بالرغبة في التوقف عن القراءة. هدف واضح يشعل بداخلك الرغبة ويقوي إرادتك؛ لكي تواصل القراءة رغم شعورك بالتعب أو الملل؛ لأن كل هذه المشاعر مؤقتة ستختفي بتحقيقك لهدفك. الأهداف تدفعنا لإخراج أفضل ما لدينا، وتقودنا لاكتشاف ثرواتنا الداخلية، التي ربما لم نكن لنكتشفها، لو لم نقم بتحديد هدف محدد، وعقدنا العزم على تحقيقه.

زكي نجيب محمود وكيف يكون الكاتب؟

كنت في السابعة عشرة من عمري، وكنت مغرمًا بالسينما جدًا، قرأت ذات يوم عن ندوة في قاعة إيوارت بالجامعة الأمريكية، يحضرها عدد من كبار المخرجين في ذلك الوقت: يوسف شاهين، عاطف الطيب، محمد خان، فقررت حضورها. كانت الندوة الثانية ضمن البرنامج الثقافي، الذي كانت تقيمه الجامعة الأمريكية سنويًا، ويبدأ في شهر أكتوبر وينتهي في شهر أبريل، لفت نظري أن الندوة الأولى مع كاتب اسمه الدكتور زكي نجيب محمود، لم أكن أعرف شيئًا عن هذا الكاتب، أول مرة أقرأ عنه أصلًا، فقررت حضور هذه الندوة من باب الفضول. دخلت القاعة، فوجدتها مكتظة عن آخرها بالبشر، مصريون وعرب وأجانب، وبصعوبة بالغة وجدت مكانًا في الصفوف الأخيرة. سألت نفسي: من هذا الكاتب الذي جعل كل هؤلاء البشر يفترون الأرض؛ من أجل سماع محاضراته؟ وهل ما سيقوله يستحق كل هذا العناء؟ على ما أذكر كان موضوع الندوة عن «الأصالة والمعاصرة»، القضية الأساسية والمحورية التي أنفق الدكتور زكي نجيب محمود (1905 - 1993) حياته في البحث والكتابة عنها، عرفت ذلك لاحقًا.

لا أعتقد أنني قد فهمت شيئاً مما قاله الكاتب الكبير في هذه الليلة، لحدائثة سني وقلّة معرفتي حينذاك، لكن ما أذكره جيداً حالة الانبهار بشخصية الدكتور زكي نجيب محمود، التي أصبت بها: عقل منظم، ذهن حاضر، منطق رصين، بلاغة رفيعة، رغم أنه كان قد تجاوز الثمانين. ومن يومها تابعت كل ما يكتبه هذا الكاتب الكبير في جريدة الأهرام، مقال كبير على صفحة كاملة كل يوم ثلاثاء. كنت أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، أفصل صفحة المقال عن بقية الجريدة، وأغلق على نفسي باب الغرفة، وأقرأ المقال برهبة شديدة، وكأنني راهب في صومعة، وأعيد قراءته مرة ثانية، وأحياناً ثالثة؛ حتى أفهم كل المعاني والأفكار التي يقصدها.

كتب الدكتور زكي نجيب محمود يقول: «إنني لا أكتب حرفاً في هذه المساحة الورقية من صحيفة الأهرام، إلا وفي ذهني معنى أتشبه به؛ حتى يظل قائماً أمام عيني، وهو أن هذه الورقة الممنوحة لقلمي ليست ملكاً لصاحب هذا القلم، يكتب عن حياته الخاصة ما يشاء، وإنما هي ملك الشعب الذي هو في حقيقة الأمر مالك الصحيفة. وإذا، فلا يجوز لصاحب القلم أن يشغلها، ولا أن يشغل أي جزء منها، بأمور تخصه هو، إلا إذا جاءت أموره الخاصة هذه بمثابة المنظار، الذي يمكن للشعب القارئ أن يرى من خلاله ما يجب أن يراه من الشؤون العامة».

كان كاتباً مبدعاً ومفكراً مخلصاً لقضيته ولمشروعه الثقافي. قال عنه الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، ذات يوم، إنه «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة»، فقد نجح في تقديم أشد الأفكار على الهضم العقلي للقارئ العربي في عبارات أدبية مشرقة، وفك أصعب مسائل

الفلسفة، وجعلها في متناول قارئ الصحيفة اليومية، واستطاع بكتاباته أن يخرج الفلسفة من بطون الكتب وأروقة المعاهد والجامعات؛ لتؤدي دورها في الحياة.

وإذا جاز لي أن أجمل فلسفة الدكتور زكي نجيب محمود وفكره في كلمات قليلة، فإني أستطيع أن أقول إن فكره كله، كان يدور حول إعلاء شأن العقل، والدعوة إلى المنهج العلمي، وصولاً إلى التقدم. وأحد أهم شروط هذا التقدم هو الاعتقاد الراسخ بأن الحاضر قد هضم الماضي، ثم أضاف جديدًا تلو جديد مما أنتجته السنون، ومعنى ذلك ألا يكون «العصر الذهبي» وراء ظهورنا، بل يكون موضعه الصحيح هو في المستقبل، الذي يعمل الناس على بلوغه، ومن هنا يكون التقدم محتويًا على وجوب التغيير، مع متغيرات الحضارات المتعاقبة، والتطور الذي ينقل الحياة نحو ما هو أعلى. ولا ينفي ذلك أن تجيء قوائم هذا التقدم مستندة إلى تراثنا، الذي تركه لنا السلف على ألا يكون في حياتنا الحاضرة بمثابة النهاية، التي نقف عندها، بل تكون بين أيدينا نقطة ابتداء، نتجاوزها إلى مستلزمات حاضر حي ومستقبل مأمول.

هذه الكلمات الوجيزة استغرقت من كاتبنا الكبير آلاف الصفحات، في شرحها والتبشير بها والدعوة إليها، ومر هو في الوصول إليها بأطوار عقلية ونفسية متعاقبة، وخاض من أجلها الكثير من المعارك الفكرية. كان الدكتور زكي نجيب محمود يؤمن بأن الغرب قد حقق التقدم عن طريق العقل والمنهج العلمي، وكان يرى أننا في مصر والوطن العربي يمكن أن ننهض ونحقق التقدم أيضًا، فما الذي يمنع العربي أن يدخل عصره مقتحمًا ميادين العلم والعملية؟ مما قد ثبت نفعه في

عملية التقدم الحضاري؟ إن عقيدته الدينية تدفعه دفعا إلى أن يتفحص ظواهر الكون المحيطة به، تفحص من يريد الكشف عن سرها، وليس تفحص من يجلس بين جدران بيته، يحملق في الفراغ الذي حوله.

على أن اقتحامنا لميادين العلم الطبيعي لن يتم لنا، على الصورة المطلوبة، إذا اكتفى علماءنا - كما هم يكتفون الآن - بالأخذ عن الغرب علومه، بعد أن تتحقق في كتاب أو في جهاز؛ لأننا في هذه الحالة ملزمون بأن ننتظر حتى يفرغ الغرب من إبداع ما يبدعه، ثم نرسل في طلبه، ومعنى ذلك أن نكون دائما وراءه بخطوة على أحسن الفروض. وإذا، فالمطلوب منا هو أن يواجه علماءنا ظواهر الكون المراد بحثها واستخراج قوانينها، فيشاركون في إبداع العلم مع مبدعيه، والخطوة الأولى التي يجب أن نخطوها في هذا السبيل، هي أن نبث في شباب جامعاتنا ومعاهدنا روح المنهج العلمي، وألا نقنع بالمادة العلمية، التي أنتجها منتجوها عن طريق استخدامهم لهذا المنهج. ولكن هذا المطلب الصعب لن يتحقق من تلقاء نفسه، لمجرد أننا نريده ونتمناه، على حد تعبير كاتبنا الكبير، بل لا بد من عمليات فكرية عميقة من القادرين عليها، تتناول حياتنا الثقافية بالتحليل الدقيق؛ لنرى بوضوح أين نحن، وأين نود أن نكون.

إن همومنا الحضارية والثقافية كثيرة وكذلك منجزاتنا وأمجادنا، فكيف السبيل إلى جمع عناصر القوة في كياننا ورؤانا، مع التخلص من عوامل الضعف في ذلك الكيان وهذه الرؤى؛ لينشأ لنا العربي العصري الجديد؟ هذا هو السؤال الذي حاول الدكتور زكي نجيب محمود، بكل حياته الفكرية، أن يجد له الجواب.

حياة واحدة لا تكفي

ذات يوم، أسعدني الحظ بقضاء ساعتين مع الأديب الكبير الراحل جمال الغيطاني، كان في السادسة والستين من عمره في ذلك الوقت، وحتى اليوم لم تغب عني التماعة عينيه، عندما تحدث عن عشقه للقراءة وللكتب وللثقافة، سألته: متى تقرأ؟ فأجابني: «بل قل متى لا أقرأ، فأنا أقرأ عندما أستيقظ من النوم في الصباح، وعندما يسعني ذلك أثناء اليوم، وفي كل مساء أقرأ وفي يدي القلم لأدون ما يعجبني، كما أنني أقضي معظم الوقت في عطلة نهاية الأسبوع في قراءة كتب التراث، إن الكتب هم رفقائي الدائمون».

وكتب عباس محمود العقاد، ذات يوم، يقول: «لست أهوى القراءة لأكتب، وإنما أهوى القراءة؛ لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني، ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة، والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد، لأنها تزيد الحياة من ناحية العمق، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب».

إن فكرة واحدة يكتشفها الإنسان، في كتاب واحد، يمكن أن تغير الطريقة التي يرى بها العالم، فكرة واحدة يقرأها في كتاب واحد يمكن

أن تغير الطريقة، التي يتعامل بها مع الناس، فكرة واحدة يجدها في كتاب واحد يمكن أن تساعد على أن يصبح ناجحًا وسعيدًا. لكن للأسف، معظم المصريين لا يهتمون بقراءة الكتب بعد الانتهاء من الدراسة، ويقضون معظم أوقاتهم في مشاهدة التلفزيون في البيوت، أو الجلوس على المقاهي، أو التجوال في المراكز التجارية، أو أي شيء آخر غير القراءة والثقافة، ومعظمهم قد أغلقوا عقولهم، أمام الرؤى الجديدة والأفكار العظيمة.

في الستينيات من القرن الماضي، زار إسرائيل كاتب هندي شهير اسمه كارانجيا، وأجرى حوارًا طويلًا مع موسى دايان، وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك، وقال دايان في هذا الحوار إن إسرائيل في الحرب القادمة بينها وبين العرب، ستدمر الطائرات العربية في مرابضها بضربة سريعة، ثم تصبح السماء ملكًا لها، وتحسم الحرب لصالحها، وحينها تساءل كارانجيا باستغراب: «كيف تكشفون عن خططكم بهذه الطريقة؟»، فرد عليه دايان ببرود: «لا عليك، فالعرب لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون، وإذا فهموا، فسرعان ما ينسون ولا يتذكرون شيئًا». بعد ذلك، قام كارانجيا بتأليف كتابه الخطير «خنجر إسرائيل»، وروى فيه تلك المقابلة، قبل أن تقع حرب يونيو عام 1967، وعندما وقعت الحرب طبق الجيش الإسرائيلي خطة دايان بحذافيرها، التي ذكرها في مقابله مع الكاتب الهندي، وكانت توقعاته صائبة للأسف، فلم يقرأ هذا الكتاب أحد، ولم يستعد لهذه الحرب أحد.

وفي إحصائية عن معدلات القراءة في العالم، نشرت في تقرير التنمية البشرية لعام 2002، كان صاحب أعلى معدل قراءة في العالم هو المواطن الإسرائيلي؛ حيث يقرأ خمسة وأربعين كتابًا في السنة، يليه مباشرة المواطن في غرب أوروبا، حيث يتراوح معدل القراءة هناك بين خمسة وثلاثين وأربعين كتابًا في السنة، ويقل هذا المعدل ليصل في دولة أفريقية فقيرة مثل السنغال إلى أربعة كتب فحسب في السنة. أما في العالم العربي، فكان المعدل يقاس بالعكس، أي ليس عدد الكتب لكل مواطن، وإنما عدد المواطنين لكل كتاب، وكان المعدل هو ثمانين مواطنًا لكل كتاب، وهذا يعني أن المواطن العربي يقرأ حوالي خمس صفحات في السنة، أو كتاب من 400 صفحة كل 80 سنة.

ويتضح من هذه الأرقام أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين كون الشعب متقدمًا وكونه قارئًا، وقد يقال إن الشعب تقدم أولًا ثم بدأ يقرأ، ولكن هذا القول يخالف منطق الأشياء؛ إذ المعقول أن الشعوب تتعلم، ثم تستعين بالعلم في تحقيق التقدم.

المعرفة إذاً هي محرك التقدم، ووعاء المعرفة هو الكتاب، والسبيل إلى المعرفة هي القراءة. ولقد اتفق علماء التاريخ على أن يقسموا حياة البشر، على سطح الأرض، إلى فترتين: الفترة الأولى، امتدت عشرات الألوف من السنين، ويطلق عليها اسم ما قبل التاريخ. أما الفترة الثانية، فلا يعدو عمرها سوى خمسة آلاف عام، وهي وحدها التي يتكون منها التاريخ. والحد الفاصل بين التاريخ وما قبل التاريخ،

الحد الفاصل بين الحضارة وما قبل الحضارة على نطاق الأرض كلها، بشعوبها وأجناسها المتعددة، ليس معركة حربية كبرى، وليس مولد إمبراطورية أو انهيارها، وليس حدثًا طبيعيًا كزحف الجليد أو تراجعها، وإنما هو حدث حضاري محض، هو اكتشاف الكتابة، أو بعبارة أخرى اكتشاف القراءة.

بالكتابة، أخذ الإنسان يدون ما تلقاه مشافهة عن السلف، وما تعلمه من تجربته، وما هداه إليه تفكيره. وبالقراءة لم يعد فرضًا على كل إنسان أن يبدأ معرفته من الصفر، بل أصبح بوسعها أن يستأنف من حيث انتهى من سبقه. وهكذا أصبحت المعرفة البشرية نسيجًا متصلًا عبر القرون، يتعاقب النساجون وتتفاوت مهارتهم، ولكن النسيج لا ينقطع أبدًا بفضل الكتابة والقراءة.

إن القراءة تنمي الفرد، والفرد ينمي المجتمع، ولن تكون هناك تنمية بغير قراءة؛ فالقراءة هي جهاز الاستقبال الذي يفتح القارئ على العالم، فينهل بعينه ما فيه من جديد. والفرد الذي لا يقرأ يوقف التيار الفكري الذي يربطه بالعالم، ويحكم على نفسه بالعزلة، وعلى عقله بالجمود، وعلى مواهبه بالتحجر.

ولكن هذا لا يعني أن الكتب تغني عن تجارب الحياة؛ لأننا نحتاج إلى قسط من التجربة لكي نفهم الحياة حق الفهم، فالقراءة تمد العقل بمادة المعرفة، ولكن التجربة هي التي تجعلنا نمارس ونفحص، ونختبر تلك المعرفة.

يقول عباس محمود العقاد: «التجارب لا تقرأ في الكتب، ولكن الكتب تساعد على الانتفاع بالتجارب». وفي المقابل، فإن التجارب لا تغني عن الكتب؛ لأن الكتب هي تجارب آلاف السنين في مختلف الأمم والعصور، ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد منا أكثر من ثمانين عامًا.

غير أنه ليست كل الكتب على الدرجة نفسها من الفائدة، فهناك كتب تُقرأ بالكامل، من الغلاف إلى الغلاف كما يقال، ولا يخرج منها القارئ بشيء، وهناك كتب قد يتصفحها القارئ سريعًا أو يقرأ منها بضع صفحات فحسب، وتترك في نفسه أثرًا عميقًا يظهر في كل كلمة يقولها، وكل سلوك يسلكه، وكل موقف، يتخذه من مواقف الحياة.

يقول الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون: «هناك كتب تستحق أن يذوقها القارئ، وكتب تستحق أن يلتهمها، وكتب تستحق أن تمضغ وتهضم». لكن في جميع الأحوال لا يجب أن يُكره القارئ نفسه على القراءة، وأن يترك الكتاب في اللحظة، التي يشعر فيها بالملل والفتور. يقول الكاتب والشاعر الإنجليزي صمويل جونسون: «إن الإنسان ينبغي أن يقرأ ما يميل إلى قراءته، وتقوده إليه هواياته، فإن ما يقرؤه كواجب لن ينفعه إلا نفعًا ضئيلًا».

كان الكاتب الأرجنتيني الكبير خورخي لويس بورخيس (1899-1986) ينصح طلابه الذين يدرس لهم الأدب الإنجليزي في الجامعة

بأن يهجروا الكتاب الذي يقرؤونه إن لم يعجبهم، كان يقول لهم: «لا تقرأوا أي كتاب لأنه مشهور أو حديث أو قديم. إذا كان الكتاب الذي تقرأونه مملاً فاتركوه، حتى ولو كان «دون كيخوته» أو «الفردوس المفقود»، إذا شعرتُم بالملل من أي كتاب فاتركوه، فهذا الكتاب لم يؤلف من أجلك. يجب أن تكون القراءة إحدى أشكال السعادة الخالصة، اقرأوا من أجل متعتكم ولأجل أن تسعدوا، فهذه هي الطريقة الوحيدة».

أما كيف يتبين القارئ الكتاب المفيد، فإنه يتبينه من كل ما يزيد معرفته وينمي ثقافته، ويرفع من قدرته على التفكير والشعور وتذوق الحياة؛ فنحن لا نقرأ إلا لنغير أنفسنا، ومن ثم نستطيع تغيير الواقع الذي نعيشه، أما القراءة التي تسعى إلى التسلية فقط، دون أن تؤدي إلى تغيير أنفسنا إلى الأحسن، فخير منها عدمها. وعلى هذا المقياس، يستطيع القارئ أن يفرق بين الكتاب المفيد والكتاب غير المفيد.

نصيحة مخلصه ورجاء، لا تتوقفوا أبداً عن اقتناء وقراءة الكتب المفيدة والتعلم منها، فإن الأمة التي لا تقرأ، أمة في خطر.

اكتشف ذاتك

تحكي قصة فارسية قديمة عن فلاح عجوز، كان يملك قطعة أرض كبيرة وقلبًا كبيرًا، فكان يستضيف في بيته رجال الدين والمستكشفين والتجار المسافرين، وسمع في أحد الأيام، من أحد التجار العرب، عن رجال ذهبوا إلى بلاد بعيدة، واكتشفوا مناجم الماس وأصبحوا أثرياء للغاية. فتحمس الفلاح العجوز، وقرر أن يخرج ويبحث عن الماس، ومن ثمّ باع أرضه، وترك أسرته، وانطلق إلى تلك البلاد البعيدة بحثًا عن الماس؛ لكي يتوج حياته بثروة هائلة.

وعلى مدى أعوام طويلة، أخذ يبحث عن الماس في تلك البلاد البعيدة، حتى نفذ ما لديه من مال، ولم يعثر على ضالته، ووجد نفسه في النهاية وحيدًا، وتملكه اليأس، فألقى بنفسه في المحيط ومات.

في الوقت نفسه، كان المالك الجديد لأرض الفلاح العجوز يغتسل في نهر يمر بالأرض، ووجد حجرًا غريبًا يشع ضوءًا بطريقة مبهرة، فأخذه إلى البيت، ووضع في مكان ظاهر. وفي أحد الأيام، جاء إلى الأرض نفس التاجر العربي، الذي أخبر الفلاح العجوز منذ سنوات عن الماس، وعندما رأى الحجر، فرح كثيرًا وسأل هل عاد الفلاح العجوز أخيرًا، فقليل له لا، لم يره أحد مطلقًا، منذ أن باع الأرض.

ولما سألوه عن سبب فرحته، التقط التاجر الحجر، وقال: «إن هذا الحجر ماسة باهظة الثمن». تشكك المالك الجديد للأرض في الأمر، ولكن التاجر أصر على رأيه، وطلب منه أن يريه المكان الذي عثر فيه على الماسة، وذهبا إلى النهر، الذي كان المالك الجديد للأرض يغتسل فيه، وبحثا في المكان فوجدا ماسة ثانية، وثالثة، ورابعة، واتضح أن الأرض كلها مغطاة بأفدنة شاسعة من الماس. لقد ذهب الفلاح العجوز إلى آخر الدنيا بحثًا عن الماس، دون أن ينظر تحت قدميه.

جاءت تلك القصة في محاضرة، ألقاها الكاتب والواعظ الأمريكي راسيل كونويل (1843-1925) في أوائل القرن العشرين، وأصبحت محاضراته تلك مشهورة جدًا لدرجة أنه يقال إنه ألقاها أكثر من ستة آلاف مرة حول العالم. ومغزى هذه القصة الرمزية البسيطة أن الفلاح العجوز لم يدرك أن الماس لا يبدو كالماس المعروف في شكله الخام، فالماس يبدو مثل الصخور العادية، في عين شخص يجهل طبيعة الماس، فيجب أن يتم تقطيع الماسة وتجهيزها وصقلها وتلميعها، قبل أن تبدو مثل الماس الذي نراه في متاجر المجوهرات. بالمثل، ربما يقف المرء فوق أفدنة الماس الخاصة به، وهو لا يعلم. إن أفدنة الماس الخاصة بكل إنسان توجد في شغفه وموهبته وتعليمه وقدراته وخبراته، ربما توجد أفدنة الماس الخاصة بالمرء تحت قدميه، إذا منح نفسه بعض الوقت ليتعرف عليها، ثم بذل الجهد الكافي في استغلالها.

لقد ولد الإنسان ليبحث عن ذاته، والمحفظون في الحياة هم هؤلاء، الذين عثروا على ذاتهم في الصغر، ووجدوا طريقهم مبكرًا، وهم غالبًا العظماء في أي زمان ومكان، وهم النخبة في أي مجتمع، وفي أي مجال.

أليس مونرو، الأديبة الكندية، الحائزة على جائزة نوبل في الآداب عام 2013، قالت في أحد الحوارات الصحفية: «لسنوات طويلة، كنت أظن أن كتابة القصص القصيرة هي مجرد تدريبات، حتى يأتي الوقت المناسب لكتابة رواية طويلة، ولكنني اكتشفت في النهاية أن هذا هو ما أستطيع أن أفعله فقط، وواجهت الأمر». بالفعل، كثيرًا ما نسعى في الدنيا وراء أشياء زائفة، وفي غمرة انشغالنا بالبحث عن الزائف، يفوتنا الشيء الذي تكمن فيه موهبتنا الحقيقية. ما أسعد الإنسان حين يكتشف موهبته مبكرًا ويهتم بصقلها، ويجد حوله من يدعمه ويشجعه. إن إدراك الذات مبكرًا من أهم مقومات النجاح.

توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، محمد عبد الوهاب، أم كلثوم، محمود مختار، محمود سعيد، حسن فتحي، مصطفى مشرفة، أحمد زويل، كل هؤلاء العظماء وجدوا طريقهم مبكرًا. أما الأقل حظًا في الحياة، فهم هؤلاء الذين تاهوا أو تعثروا في الطريق، ولكن - رغم ذلك - نجحوا في العثور على ذاتهم، قبل أن تتبخر أفضل سنوات عمرهم. أما الذين أغراهم البحث عن المال، أو غرقوا في مشاغل الحياة، ولم يعثروا على ذاتهم أبدًا، أو عثروا عليها

بعد فوات الأوان؛ أي بعد أن أصبح من الصعب عليهم البدء من جديد، فهؤلاء لم يعرفوا معنى الحياة، ولم يذوقوا لذتها.

الفنان الإسباني الكبير بابلو بيكاسو، في أحد الأيام، رآته امرأة في السوق، فجاءته بقطعة من الورق، وقالت له بسعادة: «سيد بيكاسو، إنني من أشد المعجبات بك، فهل يمكن أن ترسم لي شيئاً؟». فاستجاب لها بيكاسو بحماس، ورسم لها لوحة سريعة، ثم ابتسم، وهو يقدمها لها، وقال: «ستساوي هذه اللوحة مليون دولار». فردت المرأة بدهشة: «ولكن سيد بيكاسو، إنك لم تستغرق إلا ثلاثين ثانية فقط؛ لترسم هذه التحفة الفنية الصغيرة». فضحك بيكاسو، وقال: «سيدتي الفاضلة، لقد احتجت إلى ثلاثين عامًا؛ حتى أتمكن من رسم هذه التحفة الفنية في ثلاثين ثانية».

قبل أن يسعى الإنسان وراء المال، أو ينشغل بتفاصيل الحياة، يجب عليه أن يبحث عن طريقه في الحياة أولاً، يجب أن يتعرف إلى مواطن تميزه، يتأمل مواهبه التي تثير إعجاب الآخرين، يفكر في تلك القدرات التي يتقنها بكل سهولة، وتنساب منه بكل يسر، يكتشف ما يمكن أن يتفوق فيه، يكتشف ملكاته، يكتشف جوانب عبقريته، ثم يعمل بكل طاقته على تطويرها وتنميتها، وسيأتي المال بالضرورة تلقائيًا، وهو يحقق حلمه.

يومًا أو بعض يوم

لعل من أجمل أنواع القراءة وأحفلها بالمتعة، قراءة كتب السير الذاتية؛ لأنها لا تشبع الفضول العادي للقارئ فحسب، بل إنها تعده كذلك بكشف مزيد من الأسرار عن اللحظات الفارقة والمواقف الصعبة في حياة العظماء من البشر؛ فهي تقع في تلك المسافة الضيقة المراوغة بين التاريخ والأدب، بين ما حدث بالفعل في الواقع، وما تحتفظ به الذاكرة في الذهن، بين خبرة الحياة الخصبة في فترات توهجها، ولذة المعرفة بخباياها الدفينة.

ولعل السير الذاتية التي يكتبها الأدباء، خاصة الروائيين منهم، أكثر متعة من تلك التي يكتبها الساسة والمفكرون ورجال العلم والفن والثقافة؛ لأن الأديب أقدر هؤلاء على السرد الممتع، وتقديم فئات الحوادث والمواقف والخواطر المختلفة، بطريقة متماسكة ورؤية واضحة، تختار بالضرورة بعض الوقائع، وتغفل بعضها الآخر، فتضفي قدرًا من التشويق على المذكرات المكتوبة.

وبأسلوب ممتع وتفصيل شيق، كتب الكاتب والأديب الكبير محمد سلماوي مذكراته، التي صدرت حديثًا بعنوان: «يومًا أو بعض يوم» عن دار نشر الكرمة، وحفلت بالكثير من الوقائع غير المعروفة

لبعض أهم الأحداث السياسية والثقافية، التي شكلت عالمنا، خلال السبعين عامًا الماضية، مصحوبة بأكثر من مائة صورة من أرشيفه الشخصي والعائلي، لترسم لنا لوحة نابضة بالحياة لمصر، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اغتيال السادات.

ومن تلك الوقائع التي ذكرها محمد سلماوي في مذكراته، موقفًا وطنيًا عظيمًا لكوكب الشرق أم كلثوم، جسدت فيه بشخصها ارتباط الفنان بوطنه، فكانت رمزًا لروح التحدي، التي سادت مصر بعد هزيمة يونيو 1967. فبعد خمسة أشهر فقط من الحرب، قدمت أم كلثوم حفلها الشهير في مسرح «أولمبيا» بباريس، لتحصل على أكبر أجر، حصل عليه أي فنان من المسرح، حتى هذا الوقت، وتعود لمصر فتقدمه مساهمة منها في المجهود الحربي لبلادها.

وكان محمد سلماوي قد تعرف إلى مدير مسرح «أولمبيا» أثناء زيارته للقاهرة لتوقيع الاتفاق مع أم كلثوم، وقال المدير له إنه حين سألها عن الأجر الذي تطلبه، سألته أم كلثوم بدورها عن أعلى أجر دفعه من قبل، فقال إنه كان لمطربة فرنسية الأولى «إديت بياف»، فطلبت الحصول على ضعفه، وهو عشرين مليون فرنك فرنسي، بالإضافة إلى تذاكر السفر لها ولفرقتها الموسيقية، المكونة من ثلاثين فردًا، وإقامتها الكاملة في فندق «جورج الخامس».

وقد حضر محمد سلماوي الحفل، الذي كان ثمن التذكرة فيه ثلاثين ألف فرنك فرنسي، وكتب يقول إنه قد عمت حالة من الانتشاء

جميع الحضور، أثناء غناء أم كلثوم أغنية «أنت عمري»، وبكى هو نفسه مع صراخ الجمهور من الأعماق، أثناء أغنية «الأطلال».

وفي الاستراحة، فوجئ محمد سلماوي بمدير المسرح يهرع إليه، طالبًا منه التوجه معه فورًا إلى أم كلثوم؛ ليرجم لها ما سيقوله. وكانت أم كلثوم جالسة وسط الفرقة الموسيقية على كرسي مذهب من طراز «لويس السادس عشر»، فحياها المدير وقبل يدها، فردت عليه التحية، من دون أن تنهض من على كرسيها. ثم أبدى المدير اعتراضه على طريقة تقديم الفقرة الأولى من الحفل، التي تحدث فيها المذيع حديثًا سياسيًا ليس هذا مجاله على حد تعبيره. وكان جلال معوض قد قدم الحفل باعتباره نصرًا سياسيًا للعرب، وقال: «اليوم تشدو كوكب الشرق في عاصمة النور باريس، وغدًا بإذن الله تشدو في القدس المحررة». وناشد المدير أم كلثوم أن تطلب من المذيع ألا يقدم الفقرة الثانية بهذه الطريقة الحماسية، مضيفًا: «نحن في حفل فني، ولسنا في مناسبة وطنية».

شعر محمد سلماوي بالخرج من الموقف، وتحير كيف سيرجم ذلك لأم كلثوم، لعلمه بأنها لن تقبل هذا الكلام، ولكن قبل أن ينطق فمه بكلمة، انتفضت أم كلثوم واقفة، وقد فهمت من دون ترجمة، كل ما قاله المدير اليهودي للمسرح، وقالت: «قل له بل نحن في مناسبة وطنية، وإني جئت لفرنسا؛ من أجل المساهمة في المجهود الحربي لبلادي، وإذا كان أسلوبنا لا يروق له، فليعتبر اتفاقنا لاغيًا». ثم التفتت أم كلثوم إلى أعضاء فرقها الموسيقية، وأمرتهم أن يجمعوا آلاتهم؛

ليغادروا المسرح. فكاد المدير أن يفقد وعيه ومحمد سلماوي يترجم له بسرعة ما قالت له أم كلثوم، وأمام اعتذاراته المتكررة وتوسلاته المتلاحقة، تراجعت أم كلثوم عن قرارها، وقدم جلال معوض الفقرة الثانية من هذا الحفل التاريخي، من دون أن تحاول أم كلثوم كبح جماح حماسه الوطني.

ومن المواقف الإنسانية التي تضمها المذكرات أيضاً، موقفاً راقياً ونبيلاً لأدينا الكبير نجيب محفوظ، فيذكر محمد سلماوي أن مكتب توفيق الحكيم بالدور السادس في الأهرام، كان هو المكتب الذي خصص لنجيب محفوظ بعد حصوله على جائزة نوبل في الآداب عام 1988، حيث توفي توفيق الحكيم في العام السابق، وظل مكتبه مغلقاً إلى أن قررت إدارة الأهرام أن يكون المكتب لنجيب محفوظ حتى يليق بمكانته الرفيعة وبزواره القادمين من مختلف أنحاء العالم، بدلاً من مكتبه السابق الذي كان مشتركاً مع الدكتورة بنت الشاطي. وهنا يعطينا نجيب محفوظ درساً في التواضع والأخلاق الكريمة، فيرفض طوال السنوات التي قضاها في هذا المكتب الجديد أن يجلس إلى مكتب توفيق الحكيم، واستمر يجلس كالضيف على الأريكة الجلدية ذات اللون الأخضر الداكن الموجودة بالمكتب، والتي كان يجلس عليها حين كان يحضر إلى توفيق الحكيم.

وذاًت يوم جاء بمكتب محمد سلماوي، حين كان وكيلاً لوزارة الثقافة، فريق صحفي من مجلة «باري ماتش» الفرنسية، يطلبون منه

مساعدتهم في عمل موضوع مصور عن نجيب محفوظ، وكيف يعيش حياته اليومية. وقاموا بالفعل بتصويره بين أصدقائه، وفي الشارع أثناء جولته الصباحية من منزله بالعجوزة إلى ميدان التحرير، وفي المقهى الذي كان يجلس فيه كل صباح ليقرأ الصحف، ثم أرادوا أن يصوروه أيضًا في مكتبه بالأهرام، لكنهم فوجئوا حين ذهبوا إليه هناك، أنه يرفض تمامًا الجلوس إلى المكتب، فلم يفهموا لذلك سببًا، واتصلوا بمحمد سلماوي هاتفياً طالبين منه محاولة إقناعه بالجلوس إلى المكتب، من أجل التصوير، فقال له نجيب محفوظ بكل بساطة: «كيف يصورونني على مكتب ليس مكتبي؟!».

كان نجيب محفوظ يقدر توفيق الحكيم تقديرًا كبيرًا ويضعه في مرتبة أستاذه، وكان أول رد فعل له حين علم بفوزه بجائزة نوبل قوله: «كان أساتذتي أولى بها مني»، وحين سأله محمد سلماوي من يقصد، ذكر له أربعة هم: طه حسين، وعباس العقاد، وتوفيق الحكيم، وعبد القادر المازني. على أن تقدير توفيق الحكيم لنجيب محفوظ، كان عظيمًا هو الآخر، فحين أهداه كتاب «مصر بين عهدين» في إحدى المناسبات، كتب في الإهداء رأيه في نجيب محفوظ، فقال: «إلى عبقرى الرواية نجيب محفوظ، الذي أقام للرواية العربية طوابق شامخة، بعد أن وقفنا نحن عند الطابق الأول».

تلك كانت بعض الوقائع والمواقف العديدة، التي تضمها المذكرات الممتعة للمثقف والأديب الكبير محمد سلماوي، الذي

ألقى كلمة نجيب محفوظ في محفل نوبل، وتشاء الأقدار أن يكون مكتب نجيب محفوظ الأصلي بالدور السادس في الأهرام هو مكتبه، حين عاد إلى الجريدة ثانية، بعد أن كانت الإدارة في عهد الإخوان قد أنهت علاقته بالأهرام.

أن تكون متواضعًا

في كتابه «عشرة أدباء يتحدثون»، سأل الكاتب الصحفي فؤاد دواردة الأديب الكبير توفيق الحكيم: متى اهتديت إلى أسلوبك في الكتابة؟ أجاب توفيق الحكيم بدهشة: «وهل أنا اهتديت إلى أسلوبي بعد؟! إنني عملة ضائعة في كومة من القش، أبحث عن نفسي باستمرار، وكلما أبصرت شيئًا لامعًا وسط القش، ظننته العملة، ومددت يدي لالتقاطها، فرت من أمامي واختفت مرة أخرى وسط الظلام». متى قال توفيق الحكيم هذا الكلام؟ قاله في عام 1964، أي وهو في قمة مجده الأدبي في الستينيات، وبعد أن أصبح هو من هو، ليعطينا درسًا كبيرًا في التواضع.

وفي لقاء تليفزيوني مع الأديب الكبير نجيب محفوظ، في أعقاب فوزه بجائزة نوبل في الآداب عام 1988، سأله المذيع الشاب جمال الشاعر: متى سيكتب سيرته الذاتية في كتاب؟ قال نجيب محفوظ بكل تواضع إن الذين يكتبون سيرهم الذاتية، تكون حياتهم ثرية بالمواقف الصعبة، وحافلة بالأحداث الكبيرة المؤثرة في المجتمع، أما الإنسان البسيط كشخصه، فحياته تفتقد إلى مثل تلك الأشياء ليكتب عنها!

والأديب السوري الكبير حنا مينا كتب وصيته، وهو في الرابعة والثمانين، ونشرها في الصحف، وأعرب فيها عن رغبته في ألا يُحتفى به ميتًا، وألا يبكيه أحد ولا يحزن عليه أحد، وألا تقام له حفلة تأبين. وأصر على جنازة بسيطة ومتواضعة مثل حياته، يحمل نعشه فيها أربعة أشخاص من دائرة دفن الموتى، ثم يهيلون التراب على جثمانه، وينفضون أيديهم من بعد، وكأن أمرًا لم يحصل! هذا ما منى حنا مينا نفسه به بُعيد وفاته، وكأنه يريد أن يموت بهدوء، بعيدًا عن صخب الإعلام والضجيج، الذي يرافق عادة وفاة الأدباء الكبار، وفي منأى عن مراسم العزاء وحفلات التأبين الرسمية.

هكذا هم متواضعون أغلب العظماء في التاريخ؛ لأنهم لا يتوقفون عن مقارنة انفسهم، لا مع الآخرين، وإنما مع تلك الفكرة عن الكمال، التي يملكونها أمام انفسهم، ويعرفون إلى أي درجة هم بعيدون عن بلوغها. إنهم يعرفون حقيقة انفسهم، ويعترفون صراحة بما هم عليه من ضعف وعجز، ويعاملون البسطاء من الناس على قدر عقولهم، دون غرور أو تكبر.

والتواضع هو خفض الجناح للناس ولين الجانب لهم، وسُئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: «أن تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله». ويرتبط التواضع بثلاث فضائل، هي: الصدق والعدل والشجاعة. والمقصود بالصدق، صدق الإنسان مع نفسه، وفي هذا يقول الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت: «كلما قلت معرفة الإنسان بنفسه، ازداد كبرياء»؛ ذلك أن معرفة الإنسان لنفسه تجعله

يدرك ما في نفسه من عيوب ونقائص، فيتواضع ولا يستكبر على الناس. ومعرفة الإنسان لنفسه تجعله يعرف نفسه على حقيقتها، لا كما يريد أن يوهم الناس، يعرفها بلا تزويق ولا نفاق ولا خداع. وإذا، فالتواضع نتيجة لمعرفة الإنسان لحقيقة نفسه.

كما أن التواضع مصاحب للعدل، لأن العدل الذي يعطي لكل ذي حق حقه، هو الترياق المضاد للأنانية، التي لا ترى إلى أبعد من نهاية أنفها، والتي تجعل من الأنا مركز الكون. سئل الأديب الكبير يحيى حقي عن السبب في أنه يكاد يكون رئيس التحرير الوحيد، الذي لا يكتب بانتظام في المجلة التي يرأس تحريرها، أجاب يحيى حقي قائلاً: «أنا أتصور أن الدولة قد سلمت رئيس التحرير وظيفته، لا ليتبجح فيها كما يشاء، ولا ليطلع على القراء بمقال له كل عدد، بل لينشر على القراء أحسن ما يصله من مقالات، ومن بين ما يصله مقالته هو، فإذا وجد فيما يصله ما هو أفضل منها نشره دونها».

ومثل هذه الصراحة مع النفس، وهذه العدالة مع الناس، تقتضي بالضرورة الشجاعة في كل لحظة، الشجاعة ليتغلب الإنسان على أنانيته، وليتخلص من انحيازه لنفسه في آرائه ووجهات نظره، وليخلع قناع الخداع للآخرين، وليمزق مظاهر الكذب على الناس، وليصفي نفسه من مخدر غروره بنفسه وبملكاته، خصوصاً وأن الغرور كثيراً ما يتخذ عند الخبثاء الماكرين قناع التواضع الزائف. ولهذا ينبغي على المتواضع حقاً، لا نفاقاً، أن يتخلص من هذا القناع، الذي طالما لبسه المنافقون من أمثال طرطوف، ذلك المنافق النصاب، الذي صاغه

بإبداع الكاتب المسرحي الفرنسي موليير. إن التواضع ليس معناه ألا تُشعر الآخرين أنك أفضل منهم، بل ألا تشعر أصلاً أنك أفضل منهم، فالتواضع فضيلة، تنتفي لحظة أن يخطر بتفكيرك أنك متواضع.

المهم في التواضع ألا يتحول إلى وضاعة، وألا يكون عن ضعف وخضوع وإذعان، وألا يكون أساسه شعور الإنسان بفقدان الثقة في نفسه. في كتابه «الخيارات التي تغير الحياة»، حدد المؤلف الأمريكي هال أيربان، أربعة أشياء يتجنبها المتواضعون: لا يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء، لا يعتقدون أنهم دوّمًا على حق، لا يتفاخرون، لا ينتقدون غيرهم.

وقديمًا قال أحد الحكماء: لا تنتقد غيرك، وإلا فسيتتقدك الآخرون. فبالطريقة نفسها التي تحكم بها على غيرك يحكم غيرك عليك، وما تقيسه عليهم يقيسونه عليك. فلماذا تنشغل للذرة في ثوب أخيك، ولا تتب للبقعة في ثوبك أنت؟!

لم يختر أي شخص منا والديه ولا وطنه ولا دينه، ولم يكن له أي خيار في ظروف ولادته ونشأته؛ فأى شخص منا قد يولد بصحة جيدة أو يولد بصحة ضعيفة، وقد يولد بملامح جميلة أو يولد بملامح قبيحة، ويمكن أن تبدأ حياة أي شخص منا في مدينة حديثة، أو في قرية فقيرة، في قصر فخم أو في بيت بسيط، في أسرة مسلمة أو مسيحية أو يهودية، أو أي ديانة أو عقيدة أخرى. إن كم الاحتمالات لا حدود له، وبالتالي فنحن لا نستحق أي شيء مما نحصل عليه في بداية حياتنا.

لا يستحق أي شخص منا أن يكون جميلاً أو قبيحاً، ثرياً أو فقيراً،
من أغلبية مميزة أو من أقلية مضطهدة، كل هذه الأشياء لا دور لنا
فيها، وتفهم تلك الحقيقة وإدراكها جيداً، هو بداية الشعور بالتواضع
والتسامح وقبول الآخر.



نقطة التحول

عاد غاندي إلى الهند، بعد تخرجه في إحدى جامعات بريطانيا؛ كي يبدأ ممارسة مهنته كمحام، وعندما حان الوقت لتقديم أول مرافعة له أمام القاضي في قاعة المحكمة، لم يستطع النطق بأي كلمة، وشعر بالفزع؛ عندما انطلق جميع من في المحكمة بالضحك والسخرية منه، فناول حقييته لأحد زملائه وغادر المكان. كانت تلك بداية مهنته في ساحة القضاء، ونهاية هذه المهنة في الوقت ذاته، حيث قرر نتيجة الإهانة، التي تعرض لها عدم الوقوف أمام منصة القضاء مرة أخرى، وسعى إلى الحصول على عمل أكثر تواضعًا، لا يتطلب مثوله أمام المحكمة، أو التحدث من فوق منبر عام.

وبعد وقت قصير، سافر غاندي إلى جنوب أفريقيا من أجل تمثيل موكل هناك، وقطع تذكرة سفر درجة أولى في قطار. ولأنه لم يكن مسموحًا للملونين في جنوب أفريقيا بالركوب في عربات الدرجة الأولى، أبلغ الكمسري غاندي أنه يتوجب عليه الانتقال إلى إحدى عربات الدرجة الثالثة للجلوس فيها. رفض غاندي تنفيذ هذا الأمر العنصري، فما كان من موظفي القطار إلا أن أنزلوه بالقوة في المحطة التالية، في منتصف الليل، من دون أن يمتلك معطفًا يقيه من برد الشتاء القارس. جلس غاندي ما تبقى من الليل، وهو يتأمل في المظالم المذلة،

سوء، يكتسب منه بعض العادات السلبية، التي تؤثر عليه بقية حياته، فهذه التحولات في الحياة لها مرارتها، واكتشافها مبكرًا ومعالجتها، خير من الاستمرار فيها وتفاقمها.

الفائز الأكبر من يستطيع أن يستشف مسبقًا أن هذا الموقف سيغير حياته إلى الأفضل، فيبني قراره على ذلك، والفائز الأقل من يدرك متأخرًا أن مسار حياته قد بدأ يتغير، ويبدأ بالتكيف مع هذا التغيير، فيكون له رافدًا للنجاح، لا عاملاً للفشل. والخاسر بكل تأكيد، من يمر على هذه المواقف، وكأن شيئًا لم يحدث، فتبقى مسيرة حياته كما هي دون تغيير.

الخطأ الكبير الذي يرتكبه الكثيرون، وينعكس سلبًا على مسار حياتهم، هو عدم الثقة بإمكانية التغير أو التحول. قد يمر أحدهم في حياته بنقطة، بل بنقاط تحوّل كثيرة، يبدأ معها بالتحوّل فعلاً دون أن يريد أو يخطط، ولكن بزوال الحالة النفسية أو الظروف المصاحبة للموقف، سرعان ما يعود إلى السلبية، فلا يقتنع أنه تغير، ولا يجرؤ على الاستمرار، فيعود إلى مسار حياته السابق. الشيء الذي يجب أن يعلمه كل من يجد نفسه غير راض عن مسار حياته، هو أن محرك عملية التغيير هو قراره فقط، وما المواقف التي قد تتحول إلى نقاط تحوّل في مسيرة حياته إلا زيوتًا ووقودًا للمحرك، الذي هو قراره. ثق بنفسك، وقرر أن تتغير وستتغير. المعادلة بسيطة، وكل شيء سيأتي بعد قرارك، بما في ذلك إرادة التنفيذ والثبات؛ بشرط أن تثق بنفسك، وأن تتخذ قرارًا - تقنع به نفسك قبل الآخرين - بأنك لن ترجع عنه أبدًا.

وصفة سحرية للسعادة

هناك أسطورة صينية قديمة، تحكي أن سيدة عاشت مع ابنها الشاب في سعادة ورضا، حتى جاء الموت واختطف روح الابن. حزنت السيدة جدًا لموت ولدها الوحيد، ولكنها لم تيأس، بل ذهبت إلى حكيم القرية وطلبت منه أن يخبرها الوصفة السحرية الضرورية لاستعادة ابنها إلى الحياة مهما كانت أو صعبت تلك الوصفة. أخذ الشيخ الحكيم نفسًا عميقًا وشرّد بذهنه، ثم قال: «أنتِ تطلبين وصفة، حسنًا أحضري لي حبة خردل واحدة، بشرط أن تكون من بيت لم يعرف الحزن مطلقًا». وبكل همة وحماس، أخذت السيدة تدور على بيوت القرية كلها، وتبحث عن هدفها «حبة خردل من بيت لم يعرف الحزن مطلقًا».

طرقت السيدة بابًا في أول القرية، ففتحت لها امرأة شابة، فسألته السيدة: هل عرف هذا البيت حزنًا من قبل؟ ابتسمت المرأة في مرارة، وأجابت: وهل عرف بيتي هذا إلا كل حزن؟ وأخذت تحكي لها أن زوجها توفي منذ عام، وترك لها أربعة من البنات والبنين، ولا مصدر لإعالتهم سوى بيع أثاث البيت، الذي لم يتبق منه إلا القليل. تأثرت السيدة جدًا، وحاولت أن تخفف عن المرأة أحزانها. وبنهاية الزيارة

صارتا صديقتين، ولم ترد أن تدعها تذهب، إلا بعد أن وعدتها بزيارة أخرى، فقد مرت مدة طويلة منذ أن فتحت قلبها لأحد، لتشكي له همومها. وقبل الغروب دخلت السيدة بيت آخر، ولها المطلب نفسه، ولكن الإحباط سرعان ما أصابها، عندما علمت من سيدة الدار أن زوجها مريض جدًا، وليس عندها طعام كافٍ لأطفالها منذ فترة، وسرعان ما خطر ببالها أن تساعد هذه السيدة؛ فذهبت إلى السوق، واشترت بكل ما معها من نقود طعام وزيت ودقيق، وعادت إلى سيدة الدار، وساعدتها في طبخ وجبة ساخنة للأولاد، واشتركت معها في إطعامهم، ثم ودعتها على أمل زيارتها في مساء اليوم التالي.

وفي الصباح، أخذت السيدة تطوف من بيت إلى بيت في القرية، تبحث عن حبة الخردل، وطال بحثها، ولكنها للأسف، لم تجد ذلك البيت الذي لم يعرف الحزن مطلقًا؛ لكي تأخذ من أهله حبة الخردل، ولأنها كانت طيبة القلب، فقد كانت تحاول مساعدة، كل بيت تدخله في حل مشكلاته. وبمرور الأيام، أصبحت السيدة صديقة لكل بيت في القرية، ونسيت تمامًا أنها كانت تبحث في الأصل عن «حبة خردل من بيت لم يعرف الحزن مطلقًا»، فقد ذابت في مشكلات الآخرين ومشاعرهم، ولم تدرك قط أن حكيم القرية قد منحها أفضل وصفة للقضاء على الحزن، حتى ولو لم تجد حبة الخردل، التي كانت تبحث عنها؛ فالوصفة السحرية قد أخذتها بالفعل، يوم دخلت أول بيت من بيوت القرية.

لا يوجد من هو خالٍ من الهموم، حقيقة لا يمكن تجاهلها، مهما شعرنا بأننا نعيش حزنًا لا يوصف، أو أننا صادفنا أصعب الأمور وأكثرها ألمًا. يجب أن نتذكر جميعًا تلك الحقيقة دائمًا. وإذا كان ألمك وحزنك يفطر قلبك، فهذا أيضًا هو شعور الآخرين، فكل إنسان يرى ألمه أشد وحزنه أصعب، ولكن في الحقيقة، الحياة لا تخلو من الآلام والأحزان، ولكل إنسان شجونه وذكرياته المريرة.

إن الحياة بطبيعتها عبارة عن فرح وشقاء، ضحكات ودموع، وهذا هو حال الجميع، ولست وحدك من تعيش ذلك، كما أنه لا بد وأن يكون هناك آخرون يعيشون ظروفًا أقسى وأشد حزنًا من ظروفك، فمن رأى هموم الناس، خفت عنه همومه. نعم، فإذا فكرت أن لكل شخص ذكريات مؤلمة يعيشها، ستجد أن حياتك أفضل من حياة الكثيرين، خاصة الذين يعانون البؤس والمرض والفقر والحرمان. إذا فكرت فيهم ستجد أنهم قد يحسدونك عما أنت فيه، وستظهر أمامك المشكلات وقتها في حجمها الحقيقي، دون تضخيم أو مبالغة. وعندها يجب أن تشكر الله وتحمده، وأن تتقبل واقعك وتتقبل حياتك، التي لا بد أن تكون أفضل من حياة آخرين، ولا تبحث عن هم أكثر حزنًا منك، وتقارن واقعك بواقعهم وحياتك بحياتهم.

حاول أن تبحث عن هم أقل حزنًا منك في الحياة، وأكثر همًا وحزنًا، وفكر في أن تساعدهم، وأن تضع الحلول لمشكلاتهم؛ للتخلص منها أو لتقليلها، فتقديم العون والمساعدة للآخرين سيعطيك

إحساسًا داخليًا بالسعادة، ويطرد منك إحساس الحزن والكآبة، كما سيضيف إليك إحساس بالثقة والرضا عن النفس، ويحوّل طاقتك السلبية إلى طاقة إيجابية.

أن تكون بسيطاً

شاهدت بإحدى القنوات الفضائية فيلماً وثائقياً عن مارك زوكربيرج، مبتكر موقع «فيسبوك» الشهير، وخامس أغنى شخص في العالم بثروة تقدر بعشرات المليارات من الدولارات، صنعها بمفرده قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره. ما لفت نظري في الفيلم هو بساطة شخصية مارك زوكربيرج، هذا الملياردير العصامي الشاب، وبساطته حياته وبعدها عن مظاهر التكلف. يعيش في بيت صغير بالإيجار، وليس قصرًا فخماً من مائة غرفة، ويقود بنفسه سيارة هوندا صغيرة، لم يغيرها منذ خمسة أعوام، ويذهب إلى مقر عمله، الشركة التي يعمل بها ثلاثة آلاف موظف، مرتدياً قميصاً بسيطاً وبنطلون جينز. وعرض الفيلم لقطات، تم تصويرها من مسافة بعيدة لمارك زوكربيرج دون أن يشعر، كان يسير على قدميه مع أحد الأصدقاء في البلدة التي يعيش فيها، دون حراس شخصيين، وقام بنفسه بشراء طعام من مطعم صيني متواضع، وجلس هو وصديقه على حافة الرصيف، بكل بساطة، لتناول الطعام كما يفعل أي شخص عادي.

والملياردير الشهير ستيف جوبز، مؤسس شركة آبل، أكبر شركة في العالم، كان أيضاً بسيطاً ومتواضعاً مثل مارك زوكربيرج، يذهب

إلى عمله منتعلاً صندلاً بسيطاً، ويتجول داخل مكتبه حافياً، ويرتدي دائماً تي شيرت أسود وبنطلون جينز أزرق، وعندما سُئل لماذا لا يرتدي غيرهما، قال إنه لا يريد أن يُضيع لحظة تفكير واحدة فيما سيرتديه اليوم.

وحين سافرت الأم تريزا إلى أوسلو لاستلام جائزة نوبل للسلام عام 1979، كانت ترتدي كعادتها الساري الهندي البسيط، وفوق الساري كانت ترتدي سترة زرقاء كالتى يرتديها رجال البحرية، وفي قدميها كانت تتعل صندلاً متواضعاً، وفي يدها كانت تحمل حقيبة من القماش صنعتها بنفسها، تضع فيها كل ما تملكه في هذا العالم.

والرئيس الهندي السابق زين العابدين عبد الكلام، الرئيس المسلم الثالث للهند والعالم الكبير، المعروف شعبياً بلقب «رجل الصواريخ»، بعد أن أدى القسم الدستوري وصار رئيساً للهند، دار معه طاقم قصر الرئاسة ليختار الجناح الذي سيقوم فيه من بين أجنحة القصر بالغة الفخامة، قال لهم: «لا، لن أقيم هنا، سأقيم في بيتي، وأحضر يوميًا لأداء عملي في غرفة مكتب واحدة». وضعهم الرجل في مأزق، لم يخرجوا منه إلا بالموافقة على إقامته في بيت رسمي، متواضع بالقرب من القصر. وطلب منهم أن ينواله كوخاً من القش، تحت شجرة تين بنغالي كبيرة معمرة، في ركن معزول من حدائق القصر الخلفية، وقد ظل يلوذ بهذا الكوخ عن عالم السياسة وغرور السلطة. وطوال فترة رئاسته التي امتدت خمسة أعوام، لم تتغير طبيعة الرجل البسيطة، ولم ينس جذوره المتواضعة، فكان عندما يزور أحد مراكز الأبحاث التي

عمل بها في بواكير حياته، يصر أن يقطع من زيارته وقتًا يلتقي فيه بصديقه الإسكافي، الذي كان يرقع له حذاءه، فقد كان يعتبره حكميًا، حلو الحديث، يسعد بالنقاش معه، ويغتنى بآرائه البسيطة.

ما أجمل البساطة الناشئة عن وعي بحكمة الحياة وقراءة صادقة لحقيقة الإنسان، البساطة في صورتها الإنسانية المشرقة، التي لا تعرف التزلف والتملق والكذب. ما أجمل البساطة، التي تقرب بين البشر وتزيدهم تلاحمًا وتعاونًا لفهم احتياجات بعضهم البعض، البساطة التي لا تعترف بالفروقات الشكلية والتقسيمات المصطنعة. ما أجمل البساطة عندما تصبح صفة من صفات الحاكم، وسمة من سمات الغنى، وشعارًا يرفعه العالم والفنان والمثقف والمفكر، فعلاً لا قولاً، وممارسة لا كلامًا، البساطة التي تفتح الأبواب وتيسر الأمور.

وقديمًا قال الحكيم الصيني كونفوشيوس: «للسعادة رافدان أزيلان، هما: البساطة والطيبة». والعالم الألماني الكبير ألبرت أينشتاين يقول: «أعتقد أن طريقة الحياة البسيطة والمتواضعة هي الأفضل للجميع، وأفضل على حد سواء للجسم والعقل». والزعيم الإنجليزي ونستون تشرشل يقول: «كل الأشياء العظيمة هي بسيطة، ويمكن التعبير عن عديد منها في كلمة واحدة: الحرية والعدالة والشرف والواجب والرحمة والأمل». والروائي الأمريكي ريتشارد باخ يقول: «أبسط الأشياء غالبًا ما تكون الأصدق».

ربما لن يقتنع الكثير من الناس بهذا الكلام، وهذا طبيعي، ولا سيما في ظل تجييش إعلامي حكومي؛ لجعل الإنسان مجرد

آلة تعمل لكي تأكل وتنام، ومن ثم تتكاثر لتنجب آلات أخرى، تقوم بوظيفتها نفسها. فقد اختفت البساطة من حياتنا المعاصرة، بل إنها اختفت من كل شيء، ابتداءً من الملابس، إلى المسكن، إلى التعامل بين الناس، إلى الناس أنفسهم. كانت البساطة في الماضي هي دليل البشر في العيش، ولكن رحلت البساطة، وحلت مكانها الحياة المعقدة، التي اخترعها الناس لأنفسهم، رغم أن الحياة، كما قال الكاتب الإيرلندي أوسكار وايلد، «ليست معقدة، نحن المعقدون. الحياة بسيطة، والشيء البسيط هو الشيء الصحيح».

كانت حياة الزعيم الهندي المهاتما غاندي أبسط من البساطة، متقشفة أكثر من حياة أفقر الفقراء في الهند. فكان لا يملك إلا بيتًا صغيرًا بسيطًا، هو الذي بناه بنفسه على ضفة أحد الأنهار، ويتغذى على حليب الماعز، ويكمل الوجبة بقليل من الأرز والتمر والليمون، ولا يشرب الشاي أو القهوة أو الكحوليات، ولا يقتني إلا صندوقًا بسيطًا وثوبًا أبيض من القطن الهندي ونظاراته المستديرة الشهيرة. وحين دُعي لحفل استقبال في قصر باكنجهام في لندن، وذهب كما هو، يرتدي الثوب الأبيض، الذي يكشف جسمه النحيل أكثر مما يستره، نظر إليه أحد المدعوين الإنجليز الأثرياء في امتعاض، وسأله باستنكار: «أهذه ملابس تناسب لقاء الملك؟!»، ابتسم غاندي ابتسامته الهادئة الودودة وقال: «اطمئن يا صديقي، فالملك يرتدي من الملابس ما يكفيني ويكفيك ويكفي كل المدعوين!».

الإنسان البسيط تسهل مناقشته، وهو الأقدر على التفاهم والحوار، والعفو عندما يرتكب الآخرون خطأ في حقه، وتقديم المساعدة والعون، ذلك لأنه يتعامل مع الحياة ببساطة، دون حواجز ولا تعقيدات. أثناء الحرب العالمية الثانية، مر الجنرال دوايت أيزنهاور، الرئيس الأمريكي الرابع والثلاثين لاحقاً، بجبهة القتال في أوروبا، فوجد مجموعة من الجنود يعملون بالطريق، فيما يوبخهم قائدهم صغير السن، فترجل أيزنهاور من سيارته وساعد الجنود في عملهم الشاق، وحين سأله القائد الصغير عن شخصيته، قال له أيزنهاور: «أنا القائد الأعلى لقوات الحلفاء في أوروبا».

ويُحكى أيضاً أن قطب صناعة السيارات الأمريكي هنري فورد قد مر بأحد الشوارع، فوجد رجلاً قد تعطلت سيارته، فعرض على صاحب السيارة المساعدة، فشكره الأخير وقال له إنه خبير في ميكانيكا السيارات، وفي رحلة عودته من الشارع ذاته، وجد السيارة المعطلة نفسها، فنزل فورد هذه المرة وأصلح العطل بسهولة، وحين دهش صاحبها الخبير المغرور، قال له فورد: «لا تحزن فأنا من اخترعها». إن الشخص القوي ذا القيمة الحقيقية، غالباً ما يكون بسيطاً ومتواضعاً ولين الجانب، لا يعلن عن نفسه، ولا يطلب من الناس أن يعرفوا من هو إلا وقت الضرورة وعند اللزوم.

أن تكون بسيطاً، فهذا هو أفضل شيء في الحياة؛ لأن هذا يعني أن تكون متواضعاً ومتسامحاً ومتعاوناً ومحبباً للبشر وكارهاً للتعالي والغرور والكبرياء المزيف وغير ذلك. في البساطة نجد عقولنا التواقة

إلى التلقائية، وفي البساطة نكتشف قلوبنا البريئة الطيبة، ونكتشف
أيضاً نفوسنا التي لم تتلوث بعد بمظاهر الحقد والحسد والكراهية،
والتي صارت تلاحقنا في كل مكان.

لا تستسلم أبدًا

لاحظ الأمريكيون أن حديقة «هايد بارك» الإنجليزية تتسم بعشبها الأخضر المتوهج الكثيف، فسألوا الإنجليز عما إذا كان بوسعهم شراء البذور التي تمنح هذا العشب حيويته وغزارته فلم يمانع الإنجليز، فأرسل الأمريكيون سفينة لشحن كمية هائلة من بذور عشب الحديقة. لكن بعد عام من استخدام هذه البذور، اكتشف الأمريكيون أن العشب الجديد يقل في جودته عن عشب حديقة «هايد بارك» الإنجليزية، فسألوا الإنجليز عن سبب ذلك، فأجابوا أنه لا بد من عملية قص للعشب الجديد ثم سقايته بالماء، ففعلوا ذلك، ولكن الفارق ظل قائمًا، بعد عام آخر من القص والري. توجه الأمريكيون بطلب النصيح من الإنجليز، فاقترحوا عليهم إجراء مزيد من عمليات القص والري بالماء، لكن التحسن كان يمضي بطيئًا فاشتكوا إلى الإنجليز مرة أخرى، فقالوا لهم في النهاية: «ماذا تظنون؟ عليكم أن تواصلوا تشذيب العشب وسقايته بالماء لمائة عام أخرى، حتى تصلوا إلى العشب المطلوب».

في هذا العصر الذي تنتشر به مطاعم الوجبات السريعة، والنظم الغذائية لإنقاص الوزن بسرعة، والكتب التي تعلم الأشياء في وقت قياسي، ومخططات الثراء السريع، والأرباح اليومية في البورصات

المالية، وبرنامج «من سيربح المليون»، ربما نحتاج لأن نتوقف قليلاً، ونستخلص درساً من حديقة «هايد بارك». وهذا الدرس مفاده أننا حين نصبر، ننجح في تحقيق الفوز وجني المكاسب، ليس هناك شيء يحدث في لمح البصر، ولكننا في كثير من الأحيان لا نكون على استعداد لأن ننتظر موسم الحصاد. فحين نغرس البذور، ولا نرى النتائج، نفقد صبرنا، ونستمر في جذب الشتلات؛ لنرى ما إذا كانت الجذور قد نمت أم لا، ولا نعلم أننا عندما نفعل ذلك، نمنعها من النمو؛ وهذا فقط لأننا لا نستطيع أن نصبر قليلاً.

إن تحقيق النجاح الدائم وطويل الأمد يستغرق وقتاً، وكل إنجاز كبير غالباً ما تسبقه أعوام من الكد، والتعب، والعمل الشاق، والصعوبات، والإخفاقات، والقلق، والتوتر، وليال طويلة بلا نوم. لقد قضى العالم الألماني الكبير ألبرت أينشتاين عشرة أعوام، قبل أن يتمكن من نشر نظرية النسبية العامة عام 1915، التي غيرت مفاهيمنا عن الطبيعة، وقلبت تصوراتنا عن العالم والكون الذي نعيش فيه رأساً على عقب، وحصل عنها على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1921.

و استغرق الأديب المصري الكبير نجيب محفوظ أربعة أعوام متصلة، ابتداء من عام 1948 وحتى عام 1952، في كتابة رائعته «الثلاثية»، والتي تعتبر أفضل رواية عربية في تاريخ الأدب العربي، وكانت أحد الأسباب الرئيسية لحصوله على جائزة نوبل في الآداب عام 1988.

أما المخرج البريطاني ريتشارد أتنبوره، فقد قضى عشرين عاماً كاملة، قبل أن يشعر بالاستعداد لإنتاج فيلم «غاندي»، هذا العمل

الضحيم الذي يصور حياة الزعيم الهندي المهاتما غاندي، والذي جعله يفوز بجائزتي أوسكار أفضل فيلم وأفضل مخرج عام 1983.

نعم يستغرق النجاح وقتًا طويلًا. وأنا لا أخبرك بذلك كي أحبطك، بل أفعل ذلك كي لا تصاب بالإحباط، عندما تظن أنك ستنتهي من شيء ما في غضون شهور قليلة، ثم تجد أنك بعد مرور سنوات ما زلت تعمل على إنجازه. لذلك في المرة القادمة، حين تشعر بالإحباط؛ نظرًا للنتائج الهزيلة التي جنيتها، وتنتابك الرغبة في الاستسلام والتخلي عن المهمة، لا تفعل ذلك، ولكن فكر في عشب حديقة «هايد بارك».

يحكى أنه كان في سالف الأزمان صيادان، تسلقا جبلًا ونصبا شباكهما، وعادا إليها في اليوم التالي، فماذا وجدًا؟ كانت الشباك تعج بالحمام، وكل واحدة من هذه المخلوقات التعسة ترف بجناحيها، تحاول في يأس أن تفلت من أسارها، إلا أن عيون الشباك كانت ضيقة، فكيف لها أن تنفذ منها، ثم تكومت حول بعضها في هلع وانتظرت، وقال الصياد: «ما أسوأ هذه الطيور، إنها جلد على عظم، كيف نبيعها في السوق؟»، وقال الآخر: «ليس علينا إلا أن نطعمها أيامًا قلائل حتى تسمن»، ومن ثم ألقوا إليها بكميات وفيرة من الحب المجروش، وأحضروا لها ماء، وبدأ الحمام يأكل ويشرب في شهية ونهم، إلا واحدة لم تكثر بذلك ولم تطعم شيئًا.

وفي كل يوم، يأتي الصيادان بمزيد من الحب المجروش، وهكذا سمن الحمام يومًا بعد يوم، إلا واحدة أضناها النحول، وناضلت في عناد لتنفذ من الشبكة، واستمر الأمر على هذا الحال، حتى جاء

الصيادان ذات يوم صفيت سماؤه، وأخذوا الحمام لبيعه في السوق، ولكن الحمامة العنيدة التي قضت أيامها هذه بغير طعام، كان الهزال قد نال منها كل منال، حتى استطاعت بعد جهد أن تنفذ من بين عيون الشباك وتطير، وهكذا أصبحت طليقة، ونجت من سكينه الذبح.

حكاية أخرى، كان هناك ضفدع فضولي يحب الاطلاع على كل ما حوله، وبينما كان يحاول أن يقفز في منزل فلاح، ليكتشف عالمًا جديدًا، وقع بالخطأ في سطل لبن طازج، حاول أن يقفز خارجه، لكن حواف السطل كانت عالية، حاول أيضًا أن يصل إلى القاع ليدفع نفسه بقوة للخارج، لكنه كان عميقًا جدًا. ورغم تلك الظروف الصعبة من اللبن، الذي يعوق رؤيته، إلى فقدان الأمل في النجاة، لم يستسلم الضفدع، وحاول أن يركل السطل ويتلوى ويضرب اللبن بقدميه، وحتى بعد أن بدأت قدمه تؤلمه، ظل الضفدع يركل السطل بقدميه، ويضرب بها في اللبن ويتلوى، رغم أنه ليست هناك أي بارقة أمل للنجاة، ولكن كل هذه الحركات العنيفة كان لها الأثر في النهاية، فقد تحوّل اللبن إلى كتلة صلبة من الزبد، وهكذا قفز الضفدع من فوق كتلة الزبد وهرب مستعيدًا حرّيته.

وذاث يوم زار الزعيم البريطاني ونستون تشرشل إحدى المدارس، فطرح عليه أحد الأطفال سؤالاً، بخصوص رأيه في سر النجاح في الحياة؛ فجاء رده كالتالي: «فقط سبع كلمات»، ثم صمت لوهلة، كما هو مشهور عنه، وبعد ذلك استأنف حديثه قائلاً: «لا تستسلم أبدًا، أبدًا، لا تستسلم أبدًا».

عبرة من سور الصين العظيم

دائمًا ما تخبرنا المعالم التاريخية بقصص رائعة ذات عبرة، وسور الصين العظيم هو أحد تلك المعالم. عندما أراد الصينيون أن يعيشوا في أمان، شيّدوا سور الصين العظيم، بين القرنين الخامس قبل الميلاد والسادس بعد الميلاد، وراح السور يمتد لأكثر من ستة آلاف وأربعمائة كيلومتر، ويعرض ستة أمتار في المتوسط، حتى أصبح إحدى عجائب الدنيا السبع. إن سور الصين العظيم ليس سورًا فقط، بل هو مشروع دفاعي متكامل، يتكون من جدران عالية سميكة وأبراج مراقبة وممرات وثكنات للجنود وأبراج إنذار، وغيرها من المنشآت الدفاعية. وقد بني في الأصل، من الطوب والحجارة؛ لكي يحمي الحدود الشمالية لإمبراطورية الصين من هجمات الأعداء، خاصة جيوش المغول. وتطلب بناؤه كثيرًا من الوقت والجهد والمال والعرق والكد، وفقد مليون شخص حياتهم في هذا المشروع الضخم.

كان السور قويًا بالقدر الكافي لمنع أية هجمات من السيوف والرماح، وهي الأسلحة المستخدمة في ذلك الوقت، ومرتفعًا بالقدر الذي يمنع جنود الأعداء من تسلقه ودخول الإمبراطورية الصينية. كما أنه كان ممتدًا لمسافة طويلة، تجعل من المستحيل فعليًا على أي

جيش أن يسير ويلتف حوله. ولزيادة التدابير، كانت هناك عشرات الآلاف من الحراس يحرسونه ليل نهار. وهكذا اعتقد الصينيون بأنه حصن منيع، ولا يوجد جيش في العالم يستطيع اقتحامه.

لكن، هل استطاع سور الصين العظيم بالفعل أن يحمي الإمبراطورية الصينية من الغزاة؟ الحقيقة كلاً، ففي خلال المائة عام الأولى من بناء السور، تعرضت الصين للغزو ثلاث مرات، وتشهد صفحات التاريخ على مزيد من الجيوش التي اخترقته بسهولة، في الوقت الذي كان يبدو أنه من المستحيل اختراقه. وكان السور يتم تعزيزه عقب كل غزو، فيتم وضع المزيد من الطوب والحجارة، ومن ثم ينفق المزيد من المال. لكن كل ذلك ذهب أدراج الرياح.

إذاً، ما الذي حدث بالفعل؟ ما حدث هو أنه في حين لم يدخر الحكام جهداً أو مالاً في تشييد السور، تجاهلوا تماماً أحوال الحراس. فكان هؤلاء الرجال محبطين للغاية، ويشعرون بالوحدة الشديدة والتعاسة التامة. وكانت تتابهم حالة من حالات الاستياء والغضب تجاه الحكام؛ لأنهم يعاقبونهم من خلال وضعهم، وتركهم في تلك الأماكن البعيدة. وهكذا لم يستطيعوا تفهم الهدف الأكبر من بناء هذا السور حتى يرتبطوا به. ولذلك، في كل مرة كان يشن فيها الأعداء غزواتهم على السور، كانوا يدفعون لحراس السور الرشوة فيفتحون لهم الأبواب، ومن ثم يعبرونه بسهولة ويسر؛ فلم تكن هناك حاجة لاختراق السور أو تسلقه، فقد تم اجتيازه من خلال خيانة الثقة. وفشل السور في أداء الغرض، الذي بني من أجله؛ لأنه لم يتم وضع الحراس

- الذين سيقفون لحمايته - في الاعتبار أثناء تشييده. والعبرة من هذه القصة الحقيقية أن حكام الصين انشغلوا ببناء الحجر، ونسوا بناء الإنسان، أي أهملوا تربية المواطن وتعليمه.

لعل هذه العبرة من سور الصين العظيم قد تأملها قادة الدول الناهضة والمتقدمة، وتفهموها جيداً. فحينما قالوا للرئيس وزراء سنغافورة الأسبق، لي كوان يو «أنت صانع نهضة سنغافورة»، اعترض الرجل، وقال: «أنا لم أصنع نهضة سنغافورة، أنا صنعت الإنسان السنغافوري، وهو الذي صنع نهضة سنغافورة». وقبل ذلك، قال جواهر لال نهرو، رئيس وزراء الهند الأسبق: «لأننا أمة فقيرة يجب أن ننفق على التعليم بسخاء». وقال نيلسون مانديلا، رئيس جنوب أفريقيا الأسبق: «التعليم هو أقوى سلاح، يمكنك استخدامه لتغيير العالم». وقال باراك أوباما، رئيس الولايات المتحدة السابق: «إن كنت تظن أن كلفة التعليم باهظة، فانتظر حتى ترى كلفة الجهل!».

ما قاله كل هؤلاء القادة العظام يؤكد أن القيادة السياسية، التي تصل إلى السلطة وتريد أن تدفع بدولتها وشعبها إلى الأمام، يجب أولاً أن تكون صاحبة رؤية تربوية وتعليمية لمواطنيها. ومن هنا كان الفارق بين عصر وعصر، وحقبة وحقبة في تاريخ الدولة نفسها. فما الفارق بين مصر قبل عام 1805، ومصر بعد عام 1805؟ الإجابة هي محمد علي باشا، بما حمله من مشروع لتطوير الدولة المصرية، وفي القلب منه النهوض بالتعليم، بإنشاء المدارس الحديثة في معظم مدن مصر وإرسال البعثات العلمية إلى دول أوروبا، وقد انعكس هذا المشروع

في قيم جديدة، اكتسبها المصريون وانعكست في سلوكهم، أفرادًا وجماعات، في مجالات الحياة كافة.

وما الفارق بين ماليزيا منذ أربعين عاما وماليزيا اليوم؟ الحقيقة أن الفارق يمكن تلخيصه في اسم شخص واحد، وهذا الشخص هو مهاتير محمد، رئيس وزراء ماليزيا الأسبق؛ فحينما تولى مهاتير محمد مهام منصبه في عام 1981، كانت ماليزيا دولة فقيرة، يعيش ربع سكانها تحت خط الفقر، ولكنه قرر إحداث نقلة حقيقية في البلاد، فوضع خطة لتطويرها وتنميتها، اعتمدت على محورين رئيسيين، هما: التعليم، والتصنيع. ومن ذلك نجح مهاتير محمد في نقل بلاده من دولة زراعية فقيرة، تعتمد على تصدير بعض السلع البسيطة مثل المطاط والقصدير إلى دولة صناعية متقدمة، تغزو منتجاتها الأسواق العالمية. وتمكن خلال اثنين وعشرين عامًا قضاها في السلطة من القضاء على الفقر، وتخفيض نسبة البطالة إلى ثلاثة بالمائة فقط، وضاعف متوسط دخل الفرد سبع مرات.

إن القادة الناجحين في الدول الناهضة يدركون جيدًا أن بناء السور العظيم ليس كافيًا، ولكن المهم أيضًا الاعتناء بحراسه وأحوالهم، وجميع الدول المتقدمة في العالم لم تصل إلى ما وصلت إليه، إلا عن طريق الاهتمام ببناء الإنسان، قبل الاهتمام ببناء الحجر!

الإحساس بالآخر

في إحدى قصص حياته الرائعة، كان الزعيم الهندي المهاتما غاندي يقوم برحلة في الهند مستقلاً القطار، وعندما كان ينتقل من عربة إلى أخرى بينما القطار يتحرك سريعاً، اصطدم بأحد الأشخاص، وسقطت إحدى فردي حذائه بين القضبان، وبدلاً من أن يغضب ويندب حظه، فعل شيئاً أدهش رفاقه في الرحلة، نزع فردة حذائه الأخرى بسرعة، وألقى بها نحو تلك التي وقعت قبل ذلك، وعندما سُئل عن السبب وراء قيامه بذلك، ابتسم غاندي، وأجاب قائلاً: «الآن، الإنسان الفقير الذي سيعثر على الفرده الأولى سوف يجد الأخرى أيضاً، وبذلك سيكون لديه زوج جديد من الأحذية».

يا له من رجل رائع، ويا له من تصرف تلقائي نبيل. لو كنت أنا في مكان غاندي، ربما انتابني الشعور بالتعاسة طوال الرحلة، بسبب فقدان الحذاء الجديد، وكنت سأتدمر من سوء الحظ، وألعن الشخص الذي تسبب في الواقعة، وأظل أفكر كيف سأصرف حين أصل إلى وجهتي. وكان هذا الأمر سيشغل بالي طوال الرحلة، ويزيد من تعاستي. للأسف، نحن نميل إلى التركيز على ما ليس لدينا، وينصب تركيزنا على ما فقدناه، فنحمل عبء تلك الخسارة على أكتافنا،

وبالتالي نزيد من متاعبنا في الحياة، في حين أننا نستطيع ببساطة أن نركز على ما لدينا، ونرى ما إذا كان يمكن أن يفيد الآخرين.

في هذه الحياة، يجب على جميعنا أن نشعر ببعضنا البعض؛ لأننا جميعًا نحتاج أن نكون بجانب بعضنا البعض، حتى يمكننا التغلب على مصاعب الحياة، والعيش بسلام. حين سافرت الأم تريزا إلى أوسلو لاستلام جائزة نوبل للسلام عام 1979، وكانت مآدبة التكريم والاستقبال دائمًا من أبرز فقرات الاحتفال بالفائزين بالجائزة، سألت الأم تريزا لجنة جائزة نوبل: «ما المبلغ الذي تنفقونه عادة على المآدبة؟». وكانت الإجابة حوالي ستة آلاف من الدولارات، قالت الأم تريزا: «هذا يكفي لإطعام أربع مائة شخص من الفقراء لدينا (في كالكتا بالهند) لسنة كاملة، هل من الممكن التفضل بإلغاء المآدبة، وإعطائي النقود؟». وبعد جدال طويل، وافقت لجنة الجائزة على إلغاء المآدبة ومنحها المبلغ.

والإحساس بالآخرين ومساعدتهم ليس بالضرورة أن يكون في صورة أعمال كبيرة؛ فمجرد الابتسامة في وجه الآخرين عمل إيجابي، خصوصًا عندما نفعل ذلك مع الفئات المهمشة، التي لا يلتفت إليها أحد أو حتى يشعر بوجودها أحد.

في كتابه «شخصيات مصرية فذة»، ذكر المفكر الكبير الدكتور جلال أمين أنه في إحدى المرات، التي ذهب فيها إلى مطعم أسماك شهير في أبي قير بالإسكندرية، لمح على مائدة مجاورة الشاعر الكبير

صلاح جاهين وزوجته، الجديدة في ذلك الوقت، وكان الدكتور جلال أمين كلما ذهب مع أسرته إلى هذا المطعم، على مر السنين، يصادف دائماً رجلاً عجوزاً يمر بالموائد عارضاً للبيع فرس البحر وأشياء أخرى، وكان يصيح دائماً معلناً عن بضاعته بصوت عال، وبطريقة مميزة ولطيفة وحاسمة، تكاد تجبر الزبائن على الشراء: «سي هورس، بتاع الحظ، بتاع المحفظة»، حتى أصبح وجود هذا الرجل جزءاً لا يتجزأ من المكان.

في هذه المرة، لم يظهر الرجل، وإنما ظهر طفل في حدود العاشرة يبيع البضاعة نفسها، وينادي عليها بالعبارات نفسها، ولكن بصوت خافت خجول، لا يمكن أن يجذب التفات أحد، فلمح الدكتور جلال أمين الشاعر الكبير يترك زوجته الشابة، وما كان يأكله، ويشرع في تلقين الولد الصغير طريقة أبيه في الإعلان عن بضاعته: «سي هورس، بتاع الحظ، بتاع المحفظة، لازم تقولها كده، زي ما كان أبوك يقولها، بنفس الصوت ونفس القوة، مافيش طريقة تانية تخلي الناس تشتري منك». وراح صلاح جاهين يردد العبارة مرة بعد أخرى، تماماً كما كان يقولها العجوز، والولد الصغير يردد لها وراءه كل مرة أفضل من سابقتها.

جميعنا لدينا القدرة على إسعاد الآخرين وبأمر بسيطة، مثل: الابتسام أو التحدث معهم بلطف والاطمئنان عليهم من حين لآخر، وإذا أمكن مساعدتهم مادياً ولو بالقدر القليل. وكل الأديان تحض وتشجع على ذلك. في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل

كورنثوس، كتب يقول: «فإن كان عضو واحد يتألم، فجميع الأعضاء تتألم معه. وإن كان عضو واحد يُكرم، فجميع الأعضاء تفرح معه». وهناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي تحث على مساعدة الآخرين. قال الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

والحكيم الروماني سينيكا يقول: «إن فكر الإنسان في ذاته فقط، وبحث عن كل ما يحقق مصالحها، فلا يمكنه أن يكون سعيدًا. إن أردت أن تصل إلى خيرك الحقيقي، فعش من أجل الآخرين كما تعيش من أجل نفسك». والطبيب والفيلسوف الألماني ألبرت شفايتزر، الحاصل على جائزة نوبل للسلام عام 1952، والذي قضى معظم حياته في أبحاث أفريقيا لعلاج مرضى الجذام هناك، يقول: «غاية الحياة الإنسانية خدمة الآخرين والتعاطف معهم، والرغبة في مساعدتهم».

والكثير من الحكم والأمثال الشعبية المتداولة بين الناس تدعو إلى الإحساس بالآخر، مثل: «الإحساس نعمة»، أو «اللي عنده دم أحسن من اللي عنده فلوس»؛ بمعنى أن من الأفضل أن تشعر بمن حولك دون أن يطلبوا منك ذلك؛ فتعامل معهم بإنسانية ورحمة، وتشعر بالأمهم ومعاناتهم.

وتؤكد الدراسات الحديثة أن الإحساس بالآخرين ومساعدتهم تخفف من التوتر لدى الشخص الذي يقدم المساعدة في المقام

الأول، وتبعث على الشعور بالراحة النفسية والطاقة الإيجابية، بل وتحسن من فعالية نظام المناعة في الجسم. ففردة الحذاء الثانية التي ألقاها غاندي لم تتسبب في إسعاد إنسان هندي فقير فحسب (حيث كان الحذاء في تلك الأيام يمثل رفاهية كبيرة عند معظم الهنود)، ولكنها أيضًا جعلت غاندي سعيدًا. إذا فالإنسان الذي يساعد الآخرين في الحقيقة هو يساعد نفسه أيضًا.

عندما تجف داخل النفس الإنسانية عاطفة الإحساس بآلام الآخرين وحاجاتهم، وتنعدم من القلوب الرحمة، تحل القسوة بالقلوب؛ فتصبح مثل الحجر الذي لا يمنح أي عطاء، أو أشد قسوة منه؛ لأن من الأحجار ما تتشقق قسوته الظاهرة، فيندفع العطاء من باطنه ماء عذبًا نقيًا، لكن بعض الذين قست قلوبهم، يجف من داخلها كل أثر للفيض والعطاء. وترطيب القلوب القاسية يحتاج إلى فعل، وليس مجرد قول، كتلمس احتياجات الفقير، والرفق باليتيم، وزيارة المريض، والتخفيف على المُبتلى، ومشاركة الأم أو الأب المكلوم الدموع، والضحكة الصادرة من القلب في الفرح. كل هذا من شأنه تليين قسوة القلوب، وإعادة بريق الإحساس بالآخرين والتواصل معهم.

ربما حان الوقت لكي نركز على ما لدينا، فبدلاً من أن نتنافس لنحقق المزيد، ومنتظر المزيد والمزيد، وبدلاً من أن نقضي حياتنا مشغولين بشأن الأشياء، التي نفتقدها أو فقدناها، علينا أن نشكر الله على الأشياء الأخرى التي نمتلكها أو لا تزال لدينا، ونفكر كيف أن

التنازل عن بعضها يمكن أن يجعلنا، ويجعل أشخاص آخرين، سعداء أكثر. إن الإحساس بالآخر والعطاء والمشاركة، بدلاً من الطمع والجشع والنهم للمزيد، يمكن أن يجعلنا جميعاً أكثر سعادة، ويجعل العالم مكاناً أفضل.

أحمد خالد توفيق والتصالح مع النفس

لم أسمع عن الكاتب الراحل أحمد خالد توفيق سوى بعد أن نشر روايته الشهيرة «يوتوبيا» في عام 2008، ربما لأنني من الجيل السابق للجيل الذي كان الراحل يكتب له، فأنا من الجيل الذي بدأ وعيه يتشكل مع كتابات أنيس منصور ومصطفى محمود في الثمانينيات. وقد حققت رواية «يوتوبيا» أرقامًا خيالية في المبيعات، وأعيد طبعها عشرات المرات. وبدافع الفضول، وجدت نفسي أشتريها، ولكن لم أقرأها إلى اليوم، ربما لأنها رواية ذات طابع غريب عن قراءاتي، ألا وهو طابع الكتابة عن المستقبل، حيث تدور القصة كلها في زمن بعيد متخيل، وربما لأن أحداثها شديدة القتامة، حيث تدور - كما قرأت عنها - حول مجموعة من الأثرياء، يمارسون هواية اصطيد الفقراء، أي إنها ليست رواية عن يوتوبيا (مدينة فاضلة)، بل رواية عن ديستوبيا (مدينة فاسدة).

ولقد قرأت للكاتب الراحل ثلاثة كتب فحسب: الأول هو «اللغز وراء السطور»، عن أسرار الكتابة، وتجارب كبار الأدباء، وتجربة الكاتب نفسه مع الكتابة، ولعل ما دفعني إلى شراء هذا الكتاب، هو أن أجد فيه إجابة عن أسئلة عديدة طالما شغلتنني: لماذا تبدو هذه

الفقرة جميلة وتلك مفككة؟ ولماذا تمتعنا هذه القصة بينما تثير تلك ضجرنا؟ والكتاب الثاني هو «أفلام الحافظة الزرقاء»، عن الأفلام السينمائية العالمية التي أثرت في الكاتب، أبكته أو أضحكته أو جعلته يفكر طويلًا، وقد شدني الكتاب لأنني أحب السينما ومهتم أيضًا بتاريخ السينما، ولكن هذا الكتاب أعجبني بدرجة أقل من الأول، حيث وجدته خفيفًا نوعًا ما. أما الكتاب الثالث، والذي كان بعنوان: «فقايع»، فلم يعجبني على الإطلاق، وقد اشتريته رغم تحذير الكاتب نفسه، الذي كتب على ظهر الكتاب أنه يضم مقالات ساخرة قصيرة، لا تبغي سوى جعل القارئ يبتسم وبعدها تنفجر كالفقايع، ورصد جائزة لأي شخص يتذكر مقالًا واحدًا بعد ثلاث دقائق من قراءته.

ومن خلال مشاهدتي لبعض اللقاءات التليفزيونية، التي ظهر فيها أحمد خالد توفيق، ومن خلال معرفتي للعديد من الكتاب الذين كانوا يعرفونه عن قرب ويذكرونه بالخير، أستطيع أن أقول عنه بشيء من اليقين إنه كان بسيطًا ومتواضعًا ومنطويًا، لا يحب الكثير من الضجيج حوله، ويخجل من الإطراء مهما كان عابرًا. ملامح شخصيته قريبة جدًا من ملامح شخصية بطله الأشهر رفعت إسماعيل، في سلسلة «ما وراء الطبيعة»، التي كان يكتبها للصغار في التسعينيات. كان رفعت إسماعيل، مثل أحمد خالد توفيق، طبيبًا بسيطًا ويرتدي نظارة طبية أيضًا، وكان شخصًا عاديًا وليس بطلًا خارقًا، فكان قلبه واهنًا ويعاني من الربو والقرحة وضيق الشرايين التاجية، وكان لا يمتلك القوة والذكاء والقدرات الذهنية الخارقة، لشخصية ضابط المخبرات

أدهم صبري، بطل سلسلة «رجل المستحيل»، التي داعب بها منافسه الكاتب نبيل فاروق خيال الصغار لسنوات طوال.

ورغم شهرته الواسعة، كان أحمد خالد توفيق خاليًا من شوائب النفس، التي تصيب عادة الكتاب المشهورين، فكان يدرك جيدًا أن العالم لا يقف عند حدود نفسه، ولذلك كان أبعد ما يكون عن الغرور والغطرسة، لا يعامل القراء بصلافة وتكبر - كما يفعل كثيرون - وإنما بمودة وحب. وكان يتحدث دائمًا بصوت خافت وتواضع شديد، ويحب الانطواء والعزلة والزهد، ويعجب دومًا؛ لأن معظم الناس لا يحبون المنطوي، ولا يستريحون له بشكل عام. إنهم يفهمون أن تكون وقحًا أو أن تكون صاخبًا، أما أن تكون منطويًا مهذبًا صامتًا، فيظنون بك الظنون.

أعتقد أن الميزة الكبرى في أحمد خالد توفيق، هي أنه كان متصلحًا مع نفسه، يعرف قدراته جيدًا ولا يدعي لنفسه شيئًا أكبر من حجمها، ومفتاح التصالح مع النفس، هو أن يقبل الإنسان ذاته، كما هي، بكل مميزاتها وعيوبها، قوتها وضعفها، نجاحاتها وإخفاقاتها، دون أن يرفع منها ودون أيضًا أن يقلل منها أو يحكم عليها، وأن يتعامل مع الناس بتلقائية وبساطة، دون تكلف ولا تصنع ولا مباهاة.

رفض أحمد خالد توفيق الشهرة الكاذبة المبنية على التدليس، وكان يردد دائمًا إن الشهرة سهلة، ولكن النجاح صعب. ولم يحدث يومًا أن قال عن نفسه إنه مفكر كبير أو أديب عظيم، وإنما كان يرى نفسه مجرد «عتبة» للقراء الشباب إلى مرحلة أخرى أكثر نضجًا، يقرأون فيها

لكتاب آخرين أكثر عمقًا، مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس، وغيرهم من إيقونات الأدب المصري. وهذا ليس تحليلي، وإنما كلام أحمد خالد توفيق نفسه، وهنا تكمن عظمة الرجل، الصدق مع النفس قبل الصدق مع الآخرين، في زمن ينتشر فيه الكذب والادعاء والزيف، ويتلاشى الصدق والإخلاص والنزاهة.

لم يكن أحمد خالد توفيق باحثًا عن مجد زائف، فقط امتلك من الحكمة ما يجعله يدرك الخواتيم، يعرف أن الحفل سينفض يومًا ولن تبقى سوى الذكرى الطيبة. أحد تلاميذه في كلية الطب بجامعة طنطا، حيث كان يعمل أستاذًا في قسم أمراض الباطنة المتوطنة، يقول إنه في أحد امتحانات الشفوي بالكلية كان أحمد خالد توفيق هو الممتحن، وأمام سؤال لم يستطع الطالب أن يجيب عنه، فما كان منه إلا أن ترك الدفتر، الذي يدون فيه الدرجات جانبًا، وراح يشرح للطالب الدرس الذي يحوي السؤال. فطن أحمد خالد توفيق لدور المعلم، أراد لتلميذه أن يعرف قيمة العلم؛ فالمسألة ليست درجات يحصدها فيصبح متفوقًا أو يخسرها فيصير راسبًا، فيما ظل الموقف مغروسًا في ذاكرة التلميذ عن هذا المعلم، الذي علمه درسًا لن ينساه.

لم تكن أفعال أحمد خالد توفيق وكتابات مواقف زائفة يبغى بها الرياء، وإنما خرجت من القلب فلمست قلوب الشباب، الذين ساروا في جنازته بالآلاف، يتحسرون عليه ويبكونه بحرقة وحزن. رحم الله الإنسان الطيب النبيل المتصالح مع نفسه أحمد خالد توفيق.

هؤلاء علموني

يُحكى أن شابًا صغيرًا التقى برجل حكيم مسن، يمشي بخطوات بطيئة على ضفة نهر، سأل الشاب الرجل: كيف أصبحت حكيمًا إلى هذا الحد؟ أجاب الرجل الحكيم بكلمتين: القرارات الصائبة. فعاد الشاب وسأله: وكيف تعلمت أن تتخذ قرارات صائبة؟ أجاب الرجل الحكيم متمهلاً بكلمتين: القرارات الخاطئة. تعلمت من هذه القصة البسيطة أن قراراتنا الخاطئة، وإخفاقاتنا، وصراعاتنا، أي خبراتنا المتنوعة في الحياة، تجعلنا في النهاية أقوياء، وتجعلنا أكثر وعيًا ونضجًا وحكمة.

ولكن ما خبرات الحياة هذه، وفي أي الجامعات والمعاهد نستطيع أن نتعلمها؟ في الواقع، أننا لا نتعلمها سوى في جامعة واحدة فقط، اسمها جامعة الحياة، وأنها الجامعة الوحيدة في العالم، التي لا يستطيع أحد أن يزعم أنه قد أنهى دراساته العليا فيها؛ لأن من يتخرج فيها لا يغادرها إلا إلى قبره، أما من لا يزال على قيد الحياة، فسوف يبقى طالبًا فيها إلى الأبد، يضيف كل يوم إلى تجاربه وخبراته جديدًا، ويتعلم الحكمة في أحيان كثيرة بعد فوات الأوان.

ولأنني طالب صغير في جامعة الحياة، فقد حاولت دائماً أن أتعلم من تجاربي وتجارب الآخرين، واهتممت بوجه خاص بأن أقرأ كتب السير الذاتية والتراجم، التي يحكي فيها أعلام الأدب والفكر والتاريخ قصص حياتهم، وخلاصة تجاربهم وخبراتهم في الحياة، ووجدت فيها دائماً الإجابة عن كثير من الأسئلة، التي أثارت حيرتي وقلقي ودهشتي. فمن خلال الكتب، يعيش الإنسان تجارب وخبرات تعادل أضعاف التجارب والخبرات التي يعيشها في حياته بدون القراءة.

القراءة هي النافذة التي نطل منها على العالم الواسع خارج دائرة الذات المحدودة، لنعيش الحياة بعمق أكبر، وبوعي أفضل، وهي الوسيلة المثلى للتعلم، وإضافة أفكار وخلاصة خبرات الآخرين إلى أفكارنا وخبراتنا، إلى جانب أنها ليست تجارب وخبرات سطحية لأشخاص عاديين، وإنما تجارب وخبرات عميقة - إذا أحسن الإنسان اختيار الكتب التي يقرأها - لمفكرين ومبدعين عظماء، أثروا التجربة والخبرة الإنسانية ذاتها.

ومن بين هذه الكتب التي قرأتها، كتاب صغير، صاحبني لأكثر من خمسة وعشرين عاماً، قرأته خلال تلك المدة الطويلة عدة مرات، وما زلت أقرأه من حين إلى آخر، وهو كتاب سجل فيه المفكر الكبير سلامة موسى (1887-1958) ما تعلمه من عدد كبير من أعلام الفكر والأدب في العالم، وصدر في عام 1953 بعنوان: «هؤلاء علموني». وهو كتاب يستحق أن يقرأ، ويستحق أن تعيد الهيئة العامة للكتاب

نشره من جديد. فمن هذا الكتاب، اكتسبت أو حاولت أن أكتسب أهم ما تعلمه سلامة موسى من هؤلاء الرجال العظام.

تعلم سلامة موسى من الفيلسوف الفرنسي فولتير (1694-1778) أن أسوأ ما تصاب به أمة، من الأمم، أن يتحد الدين مع الاستبداد، وأن يتحالف الطغاة مع الكهنة، بحيث يستند الدين إلى قوة النظام ويستند الاستبداد إلى نصوص الدين، وهذا ما كان واقعاً في فرنسا، في القرن الثامن عشر، حين تحالفت الكنيسة الكاثوليكية مع الحكومة الفرنسية، ودفعت الحكومة والشعب معاً إلى التعصب واضطهاد غير الكاثوليك.

وتعلم سلامة موسى منه ضرورة التعايش بين الطوائف المختلفة والتسامح وحرية الفكر والاعتقاد. وتعلم منه أيضاً أن دور الكاتب ليس أن يعيد أفكار السابقين من غير الإتيان بشيء جديد، وإنما أن يكافح ويشترك في هموم البشر ويدعو إلى تقدم الإنسانية، وأن كُتّاب البرج العاجي، الذين يقفون بعيداً عن معترك الحياة السياسية والاجتماعية، لا قيمة لهم ولا فائدة منهم، بل هم بمثابة الجندي الهارب من المعركة.

وتعلم سلامة موسى من الأديب الألماني جوته (1749-1832) أن غاية الحياة هي الحياة نفسها؛ أي ترقية الشخصية بتربيتنا وبسط الآفاق أمامنا للتعلم والاختبار؛ حتى نزداد فهماً لأنفسنا وللطبيعة، فنزداد بذلك حكمة. وتعلم منه أننا يجب أن نشكل شخصيتنا، قبل

أن نشكل أي شيء آخر، فليس هناك ما هو أهم منها عندنا. وتعلم منه أيضًا أن آفاق الثقافة لا حدود لها، فيجب أن ندرس الأدب والتاريخ، كما ندرس الفيزياء والكيمياء. وتعلم منه أيضًا أننا يجب أن نطلب الاختبارات إذا لم تصادفنا، فنقرأ ونتثقف ونتعلم ونمارس السياسة ونختلط بالمجتمع ونشغل بنهضته. وأخيرًا تعلم منه أننا جميعًا أبناء هذا الوطن الكبير المسمى بالعالم.

وتعلم سلامة موسى من الفيلسوف الأمريكي جون ديوي (1859-1952)، أنه ليس هناك في هذا الكون شيء ثابت لا يتغير، لأن كل شيء في صيرورة متغيرة، وليس في كينونة ثابتة. ولو كانت الأشياء ثابتة، ولو كانت عقولنا ثابتة، لكان فهمنا لهذه الأشياء ثابتًا نهائيًا، ولكننا نحن جميعًا في صيرورة. وطالما أن المجتمع ليس نهائيًا، إذ هو يتطور، فيجب أن نتناوله بالتغيير، كلما وجدنا الحاجة إلى هذا التغيير. وكانت شهرة ديوي في التربية أكبر من شهرته في الفلسفة، وقد تعلم منه سلامة موسى في هذا المجال، أن المدرسة هي جنين المجتمع، وحين تنطوي المدرسة على نفسها، وتعلم النظريات وتلقي الدروس، التي لا علاقة لها بالمجتمع، حين تفعل ذلك، تعود بالضرر على تلاميذها، ولهذا يجب ألا تنقطع المدرسة أبدًا عن الاتصال بالمجتمع. وتعلم منه أيضًا أن قيمة المدرسة تقاس بدرجة ما تتركه في التلميذ من الرغبة في النمو والتطور.

وتعلم سلامة موسى من الفيلسوف الفرنسي سارتر (1905-1980) أن الإنسان ليس شيئًا أكثر من أن يكون المشروع، الذي شرعه

وخططه لنفسه، ووجوده نفسه ليس قائمًا إلا على الحدود والمقاييس التي يحققها لنفسه، وهو إذاً ليس شيئًا أكثر من مجموع أعماله، ليس شيئًا أكثر من حياته. وما دامت الحياة مشروعًا، وما دمت أنت تقوم بإنجاز أو إتمام هذا المشروع، فأنت مسئول عن حياتك، عن جوهرك، أنت مسئول لأنك حر في اختيارك للأشياء، التي انتهت بك إلى هذا الجوهر، وعلى قدر مهارتك في الاختيار، تكون حياتك سامية أو متوسطة أو دون المتوسط.

وقد تعلم كاتب هذه السطور من سلامة موسى نفسه أن الثقافة ليست ترفًا وإنما ضرورة، وليست معارف ومعلومات فقط، وإنما موقف ورأي واتجاه وعادات في الحياة، وأن الإنسان يجب أن يظل يقرأ ويثقف نفسه، حتى آخر يوم في حياته؛ ليظل عقله نشطًا وفكره متقدّمًا. وتعلمت منه أن الإنسان يجب أن تكون له فلسفة واضحة في الحياة، ويجب أن يجاهر بما يعتقد أنه الحق مهما كانت العواقب، وتعلمت منه أن الكاتب يجب أن يحيا ما يكتبه، ويكتب ما يحياه؛ ليكون صادقًا مع نفسه ومع قرائه. وتعلمت منه أيضًا أن الإنسانية في حد ذاتها دين، وأن المؤمن الحقيقي هو الذي يؤمن بالإسلام والمسيحية واليهودية، وكل الديانات الأخرى، ويتأمل كونفوشيوس، ويحب زرادشت، ويهفو إلى بوذا، ويحترم ويقدر إسهامات أرسطو، وديكارت، وكانط، وهيغل، وماركس، وراسل، وكل الفلاسفة القدماء والمعاصرين، ويشعر أن كل هؤلاء أسرته وأقرباؤه في الروح، يستلهم منهم جميعًا قيم الحق والخير والجمال.

ونستون تشرشل وكيف يكون القائد؟

شاهدت الفيلم الأمريكي Darkest Hour أو «الساعة الأكثر ظلمة»، في دار سينما «زاوية» بوسط البلد. يصور الفيلم جزءاً من حياة القائد البريطاني العظيم ونستون تشرشل، يصور الذروة في تلك الحياة، الأيام الأولى لتوليته منصب رئيس وزراء بريطانيا في أحلك لحظات بلاده؛ ففي حياة كل قائد عظيم، لحظة خاطفة تأتي في صورة أزمة كبرى، والتي تدفعه للإقدام على أعظم ما أقدم عليه، قوة غامضة تشده للتاريخ، تحوّل مفاجئ يحمل صاحبه إلى الذروة، أو يهوي به إلى الحضيض. والفيلم يكشف للمشاهد سر تلك اللحظة الخاطفة، وسر تلك القوة الغامضة، وسر ذلك التحوّل المفاجئ، الذي فتح أمام ونستون تشرشل أوسع أبواب التاريخ.

تبدأ أحداث الفيلم في العاشر من مايو عام 1940، حين اجتاحت قوات هتلر أراضي هولندا وبلجيكا، وسحب البرلمان البريطاني الثقة من رئيس الوزراء المحافظ نيفيل تشامبرلين، الذي ثبت للإنجليز ضعفه، وعدم قدرته على مواجهة الموقف، والذي كان يعاني سرّاً من مرض عضال. وهكذا منح كبار أعضاء حزب المحافظين منصب تشامبرلين إلى تشرشل، لأنه المرشح الوحيد الذي يمكن أن تقبل به

المعارضة. لكن ظلت لدى هؤلاء الأعضاء في الوقت نفسه شكوكهم حيال رئيس الوزراء الجديد، ذاك السياسي المخضرم غريب الأطوار، الذي أدت قراراته الخاطئة في حملة جاليبولي في عام 1915 - حينما كان وزيراً للبحرية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى - إلى تكبد القوات البريطانية خسائر فادحة.

وبينما طالب بعض الأعضاء بقبول الهدنة والتفاوض مع العدو النازي، أصر تشرشل على المقاومة، لكي يثبت ليس لمعاصريه فحسب، بل للتاريخ، أنه في عداد القادة العظماء، الذين يتمسكون بالمبادئ، فلم يهادن هتلر، رغم اجتياحه لأوروبا وانتصاراته الساحقة، بل اختار أن يحاربه بكل ما لدى بريطانيا من قوة. وفي أول خطاب له في مجلس العموم، وقف تشرشل يخاطب شعبه قائلاً: «ليس لدي ما أقدمه لكم، سوى الدماء والدموع والعناء والعرق».

وكانت أول معركة خاضها تشرشل ضد هتلر هي معركة دنكيرك، التي تمكن فيها من إنقاذ 300 ألف جندي بريطاني، كانوا موجودين في الأراضي الفرنسية، عندما بدأ هتلر في غزو فرنسا. وقد حاول هتلر حصارهم للقضاء عليهم، ولكن تشرشل تمكن من استعادتهم، من خلال توجيه الأمر إلى أربعة آلاف جندي في كاليه للاشتباك مع الألمان في معركة انتحارية، خاسرة حتمًا، لصرف أنظارهم، إلى حين، عن القوات الكبيرة المحاصرة في دنكيرك تحت رحمة الطيران الألماني. وفي الوقت نفسه، طالب تشرشل المواطنين الإنجليز بالإبحار بقواربهم الصغيرة؛ للقيام بواحدة من أعظم عمليات الإجلاء

في التاريخ. وقد عاد الجنود إلى وطنهم، مخلفين وراءهم كل ما كان معهم من معدات حربية ومدافع ثقيلة، لا يحملون سوى البنادق، ولكن مجرد عودتهم كانت أول نصر لبريطانيا في الحرب.

لم يصور المخرج البريطاني جورايت سوى مشهد قصير لذلك الإبحار الأسطوري لقوارب الصيد الصغيرة، من على شواطئ إنجلترا متجهة إلى دنكرك، بجانب بضع لقطات للقتال العنيف، الذي دار في فرنسا. أما الجزء الأكبر للفيلم فيصور القادة السياسيين، وهم منهمكون مع بعضهم البعض، في نقاشات عنيفة لا تنتهي. ومع ذلك، تعامل رايت مع عمله السينمائي الحافل بهذه النقاشات السياسية، وكأنه فيلم حركة شديد الإثارة، بفضل التصوير البارع، والمونتاج السريع، وجمل الحوار القوية المؤثرة. وقد حول جورايت مقر مجلس الوزراء البريطاني، إلى ما يشبه المتاهة، وسط إضاءة خافتة، وغرف كثيفة تحت سطح الأرض، مظلمة ومعبقة بدخان السجائر، وطرقات ضيقة، وأبواب موصدة تفتح وتغلق بعنف، وأصوات نقاشات حادة عالية، ليضاعف من تأثير حالة التوتر والعصبية والاضطراب، في الساعة الأكثر ظلمة في تاريخ بريطانيا.

لكن هذا الإخراج البارع ليس وحده سر نجاح الفيلم؛ فتكمن قوة الفيلم أيضًا في براعة الممثل الكبير جاري أولدمان في أداء شخصية ونستون تشرشل. اكتسب أولدمان وزنًا زائدًا ليقارب حجم تشرشل، ولعب المكياج دورًا كبيرًا في جعله يشبهه إلى حد كبير. ولكن لا يقتصر الأمر على تشابه المظهر الخارجي فحسب؛ إذ استطاع

أولدمان بموهبته الفذة التقاط روح شخصية تشرشل، هذا الرجل البدين الذي يقترب من السبعين، والذي لا يفارق السيجار شفثيه، ولا يستطيع التوقف عن شرب الخمر أو التحكم في غضبه، والذي تتابه مشاعر وانفعالات مضطربة، بين الاكتئاب الحاد والعصبية الشديدة، والقسوة على الآخرين والقسوة على النفس، ونجح أولدمان في تجسيد كل هذا، بقدر هائل من الدقة والحيوية. وقد جعل أولدمان أي ممثل سيتصدى لهذه الشخصية لاحقًا يرتعد خوفًا، واستحق عن جدارة الحصول على جائزة الأوسكار في عام 2018.

أما كاتب السيناريو أنتوني ماكارتن، فقد عالج فيلمه بحذق ومهارة بالغة، فجعل أحداثه تدور خلال شهر واحد فقط، بصورة شبه وثائقية. وكان أفضل ما تضمنه السيناريو هو الصراع القوي بين ونستون تشرشل من جهة، ونيفيل تشامبرلين (رئيس الوزراء السابق) وفرنسنت هاليفاكس (وزير الخارجية) من جهة أخرى، وكلاهما راغب في التفاوض مع الزعيم النازي هتلر، والتوصل إلى اتفاق سلام مع ألمانيا.

ولعل براعة السيناريو تكمن في أنه لم يجعل المشاهد يتأكد، منذ البداية، أن السياسة المتشددة التي تبناها تشرشل كانت هي النهج الصحيح، وأن خصومه ليسوا سوى جبناء. فتشده حول القتال إلى آخر رجل، يمكن أن يبدو لنا متطرفًا وقاسيًا، ويخلو من الرحمة، كما أن دعوة هاليفاكس إلى إجراء مفاوضات السلام، يمكن أن تبدو عقلانية إلى حد كبير. ورغم أن السيناريو لا يجعل المشاهد، بالتأكيد، يصل إلى مرحلة تأييد موقف هاليفاكس، الذي تظهره الأحداث متملقًا

ووصوليًا، فإن السيناريو يتيح للمشاهد الفرصة للتعرف إلى الأسباب، التي دفعت البعض إلى عدم تأييد تشرشل.

وفي لحظة مصيرية فارقة، يبدو فيها تشرشل عاجزاً عن التصدي لإلحاح غريميه، ويكاد يوافق على التفاوض مع العدو النازي، يختفي تشرشل عن الأنظار، ينزل من سيارته الرسمية فجأة، ويركب قطار مترو الأنفاق، في أجمل مشاهد الفيلم من وجهة نظري، فيفاجأ الناس بوجود رئيس الوزراء ونستون تشرشل بينهم ويرتبكون، لكنه يمازحهم ويبادلهم الحديث، ويسألهم عن رأيهم تجاه ما يجب أن تفعله بريطانيا إزاء العدوان النازي. فيجمع ركاب عربة القطار، بمنتهى الحماس والإصرار، على مواجهة هتلر وعدم الاستسلام لعدوانه. يُطمئن هذا الحماس والإصرار تشرشل، ويدفعه إلى اتخاذ القرار السليم، فيذهب إلى مجلس العموم؛ ليواجه أعضاء البرلمان بروح معنوية عالية، مستمدة من إرادة الشعب، ويلقي خطاباً تاريخياً، يرفض فيه أن يُقدم على أي تنازل أو مهادنة مع العدو الغاشم، ويقول: «سنقاتل على سواحلنا، سنقاتل على تلالنا، سنقاتل في مدننا وقرانا، ولن نستسلم أبداً».

هذا القرار الشجاع من قائد، استطاع أن يستقرئ إرادة شعبه، واستجاب لها، ووقف ممثلاً لها بكرامة وإصرار، هو ما جعل ونستون تشرشل شخصية خالدة في التاريخ الحديث، ونموذجاً مذهباً لرجل فاق المتوقع منه، وتحول من إنسان عادي إلى قائد ملهم، استطاع بصموده أن يحقق الانتصار على أعنى قوة عسكرية على وجه الأرض، في ذلك الزمان.

[The text in this section is extremely faint and illegible.]

كاتب وأربع قضايا

رغم أن اسم الكاتب الإنجليزي - الياباني الأصل - كازو إيشيجورو، الذي فاز بجائزة نوبل للآداب عام 2017، لم يكن متداولاً كمرشح للجائزة لهذا العام، ولم يعرف أنه رشح لهذه الجائزة في الأعوام الماضية، إلا أن فوزه بجائزة نوبل قد أثلج صدور كثير من النقاد، الذين صدمهم فوز مغني البوب الأمريكي بوب ديLAN بالجائزة في العام السابق، والكاتبة الصحفية البيلا روسية سفيتلانا أليكسفيتش بالجائزة في العام الأسبق.

وقد طرح فوز إيشيجورو بالجائزة عدة قضايا مهمة: القضية الأولى هي قضية الهوية، وكما هو معروف فالهوية نوعان: هوية جماعية وهوية فردية. الهوية الجماعية هي شعور المرء بالانتماء إلى هذه الأمة، إلى هذه القومية، إلى هذا البلد، إلى هذا الشعب، إلى هذا الدين، إلخ. وفي كل أحوال هذه الهويات، ليس للفرد حرية في اختيارها في الغالب. أما الهوية الفردية فهي ثمرة إرادة الفرد نفسه.

والأسئلة التي طرحها حصول إيشيجورو على الجائزة: هل هوية الفرد ثابتة أم متغيرة؟ وهل يجوز أن ننظر إلى هوية الفرد انطلاقاً من

ماضيه فقط؟ وهل الهوية الجماعية تسبق الهوية الفردية دائمًا؟ فقد ولد إيشيجورو في اليابان عام 1954، في مدينة نجازاكي التي دُمرت بالقنبلة الذرية الثانية التي ألقتها أمريكا على اليابان في نهاية الحرب العالمية الثانية، لوالدين يابانيين هاجرا إلى بريطانيا في عام 1960، وإيشيجورو في السادسة من عمره، فعاش فيها وتجنس بجنسيتها، ودرس في مدارسها وجامعاتها.

يقول إيشيجورو: «أذكر أنني عندما جئت إلى هنا، كنت أنا الطفل الياباني الوحيد في المنطقة، ولم يكن هناك من يسألني من أي مجتمع أنت. وحتى الآن لا أشعر بروابط مع المجتمع الياباني الذي يعيش هنا، فهو مجتمع عابر، يتكون من مجموعة من رجال الأعمال في شركات متعددة الجنسيات، يرسلون أبناءهم إلى مدارس يابانية، ويأكلون في مطاعم يابانية، وأنا لا أفهم ثقافتهم، ولا أتكلم لغتهم، ولا أعيش حياتي بأسلوبهم نفسه، وليس هناك ما يربطني بهم سوى أصلي، وأعيش هنا كما يعيش أي كاتب إنجليزي». إذا فإيشيجورو ياباني من ناحية الأصل والملاح، ولكن من ناحية الثقافة واللغة والانتماء الحضاري، يحسب لصالح الثقافة الإنجليزية والحضارة الغربية عمومًا.

والقضية الثانية هي قضية النجاح، فقد اتجه إيشيجورو إلى الأدب، بعد أن ذاق مرارة الفشل وتراجعت أحلامه الأخرى، كأن يكون موسيقيًا مثلاً، وإن كان قد استخدم تلك الخلفية لاحقًا في كتابة رواية

تتمحور حول عازف بيانو. لكن إيشيجورو تعلم أن الفشل هو إحدى أكثر تجارب الحياة نفعًا وإفادة؛ لأن الفشل يعطي الإنسان الدروس الكافية، التي يجب أن يتعلمها، قبل أن يبدأ مشواره نحو النجاح، وهي الدروس التي لا يمكن أن يعطيها أي معلم آخر غير الفشل.

واستطاع إيشيجورو بصبره وجلده وإصراره أن يحقق نجاحًا كبيرًا في المجال الجديد، الذي اختاره لنفسه، الأدب والإبداع الروائي، حتى رشح أربع مرات لجائزة بوكر البريطانية، والتي تعتبر أهم جائزة في الرواية المكتوبة باللغة الإنجليزية، وقد فاز بها في عام 1989، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، وأخيرًا يفوز بجائزة نوبل، وهو صغير السن نسبيًا (62 عامًا)، بالمقارنة بمن سبقوه للفوز بالجائزة، والذين كان معظمهم قد تجاوز السبعين أو الثمانين حين حصلوا عليها.

والقضية الثالثة هي قضية الكم والكيف، فهذا الروائي لم يكتب طوال حياته، ومنذ أن احترف الأدب في عام 1982، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، سوى سبع روايات وعدد قليل من القصص القصيرة. سبع روايات فقط في خمسة وثلاثين عامًا، وكانت بالترتيب: رواية «منظر شاحب للتلال» في عام 1982، ورواية «فنان من العالم الطليق» في عام 1986، ورواية «بقايا اليوم» في عام 1989، التي فاز عنها بجائزة بوكر في العام نفسه، ورواية «من لا عزاء لهم» في عام 1995، ورواية «عندما كنا يتامى» في عام 2000، ورواية «لا تدعني أرحل» في عام 2005، وروايته الأخيرة «العملاق المدفون» في عام 2015. وقد أحدثت جميع تلك الروايات دويًا كبيرًا عند صدورها،

على المستويين النقدي والجماهيري، وتميزت بمستوى فني عال، رغم اختلاف موضوعاتها وتنوع أساليبها، فربما كان أهم ما يميز إيشيجورو، هو أنه كاتب مجدد، وقد تحوّلت ثلاث من رواياته إلى أفلام سينمائية ناجحة. وكل هذا يؤكد أن قيمة الكاتب أو الروائي يكتسبها من جودة أعماله وتنوعها، وليس من تعددها وكثرتها، كما يظن الكثير من الكتاب والروائيين عندنا في مصر.

والقضية الرابعة هي قضية البساطة والعمق، فروايات إيشيجورو تمتاز بالبساطة وفي الوقت نفسه بالعمق، وخالية من الغموض والتعقيد، واستخدام المفردات المبهمة، التي ترهق الفكر دون مبرر أو فائدة، وهي الأشياء التي يعتبرها بعض الروائيين عندنا دليلاً على براعة الكاتب وحنقه، وعدم سطحية أفكاره.

يكتب إيشيجورو بأسلوب شديد البساطة والاقتصاد، ولا يقدم للقارئ إلا التفاصيل المهمة والضرورية، وهو كاتب مدهش في تقديم شخصيات ثانوية تحيط بأبطاله، فتبرزهم عن طريق العلاقات التي تربطهم معاً. قرأت له رواية «بقايا اليوم»، التي ترجمها طلعت الشايب في عام 2000، ضمن المشروع القومي للترجمة، وقد أعجبني بناءها الفني المحكم وأسلوبها الأدبي السلس، وتلك خصائص مشتركة في جميع أعمال إيشيجورو؛ فالرواية تغوص في عالم الأحاسيس المكبوتة، وتدور حول رئيس خدم رزين، يكرس نفسه بثبات لخدمة سيده، وهو لورد بريطاني، يحاول أن يحافظ على النظام والانضباط ومستوى الخدمة الممتاز في قصر مخدومه الفخم، حتى على حساب

عواطفه الشخصية. ويقدم إيشيجورو لنا في الرواية أيضًا رجلًا دبلوماسيًا أمريكيًا، يرسم شخصيته بعناية فائقة، لكي يظهر التناقض بين الثقافتين الإنجليزية والأمريكية. وهذا الدبلوماسي الأمريكي، يشتري المنزل لاحقًا من اللورد الإنجليزي، الذي لطَّخ سمعته بتأييده للسلام مع ألمانيا النازية قبل الحرب، ولكن رئيس الخدم يخلص للمالك الجديد أيضًا، رغم أنهما على طرفي نقيض.

وقد تحولت رواية «بقايا اليوم» إلى فيلم سينمائي رائع بالاسم ذاته في عام 1993، رُشِّح لسبع جوائز أوسكار. وكان الفيلم من بطولة أنتوني هوبكنز وإيما تومسون، ومن إخراج المخرج البريطاني الكبير جيمس إيفوري. أظن أن السبب في روعة الفيلم، إلى جانب براعة المخرج والممثلين، يرجع في الأساس إلى بساطة الرواية وعمقها وتكاملها، فكل مشهد وكل شخصية، كانت تضيف إلى المعنى الكلي للفيلم وتبرزه.

البائع

في نادي سينما الجزويت بستوديو ناصبيان في الفجالة، شاهدت الفيلم الإيراني «البائع»، بعد أن فاتتني فرصة مشاهدته في دور السينما. وكان الفيلم قد فاز بجائزة أوسكار أفضل فيلم أجنبي في عام 2017 (تغيب طاقم العمل عن حضور حفل استلام الجائزة؛ احتجاجًا على قرار الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بمنع مواطني سبع دول إسلامية من دخول الولايات المتحدة)، كما فاز بجائزة أفضل سيناريو، وجائزة أفضل ممثل في مهرجان كان السينمائي الدولي، وهذا ما دفعني إلى مشاهدته؛ خاصة وأني - بسبب احتكار السينما الأمريكية لشاشات العرض التجاري في مصر - لم يسبق لي أن شاهدت أفلامًا من السينما الإيرانية، التي يكافح مبدعوها للاستمرار، رغم القيود المفروضة عليهم، منذ اندلاع الثورة الإسلامية عام 1979.

يحكي الفيلم قصة الزوجين عماد وورنا، اللذين يستيقظان ذات يوم على أعمال حفر صاخبة، تجري بجوار المبنى الذي يقطنان فيه، تهتز عمارتهما السكنية، وتبدأ في التصدع، ونشاهد زجاج النوافذ، وهو يتشقق. يهرع الزوجان لمغادرة المبنى فورًا، تاركين كل شيء

وراءهما. ونلمس من البداية مدى شهامة الزوج عماد الذي يعود من أجل مساعدة سيدة مسنة، في نقل ابنها المعاق لخارج المبنى الذي قد ينهار في أي لحظة. ولحسن الحظ لا ينهار المبنى، ولكنه يصبح خطرًا وغير قابل للسكن فيه، ويجد الزوجان نفسيهما في الشارع دون مأوى.

يعمل عماد مدرسًا في مدرسة ثانوية، ويتمتع بمحبة وصداقة طلابه، ويعمل في المساء ممثلًا في فرقة مسرحية متواضعة، وتعمل رنا كذلك ممثلة في الفرقة نفسها، وكانا يستعدان مع فرقتهما لعرض مسرحية، مأخوذة عن نص الكاتب الأمريكي آرثر ميلر «موت بائع متجول».

ويخطط الزوجان للمبيت في المسرح؛ حتى يجدا مسكنًا مناسبًا، إلا أن أحد زملائهما يخبرهما أنه يعرف شقة شاغرة، يمكنهما الانتقال إليها فورًا، ويساعدهما بقية أعضاء الفرقة في حمل متعلقاتهما إلى الشقة الجديدة، التي تقع فوق سطح عمارة سكنية بوسط مدينة طهران المزدحمة. يكتشف عماد أن هناك غرفة موصدة في تلك الشقة، ويخبره زميله أن المستأجرة السابقة قد خزنت أغراضها في تلك الغرفة، وتحتاج عدة أيام لتأتي من أجل نقل أشيائها.

تمر الأيام، ولا يأتي أحد، ويستفز هذا الأمر عماد بشدة؛ فيفتح الغرفة، وينقل أغراض المستأجرة السابقة إلى السطح، ويحمي الأغراض من المطر بمفارش بلاستيكية سميكة، إلا أن السيدة

تغضب بشدة عندما تعلم بما فعله، وتتوعده عبر الهاتف بأن الأمر لن يمر بسلام.

أحداث الفيلم يرويها أصغر فرهادي (كاتب السيناريو ومخرج الفيلم) بمهارة شديدة وعلى مهل، فهو لا يتعجل شيئاً، بل يجعل المشاهد دائماً في حالة تساؤل: ماذا سيحدث بعد؟ ما سبب هذه الرتابة في العلاقة بين الزوجين؟ لماذا يبدو كلاهما دائماً في حالة شرود، وكأنهما يعيشان في مكان آخر وزمان آخر غير المكان والزمان الحاليين؟ لماذا تجاهل عماد السيدة التي ادعت كذباً أنه تحرش بها في التاكسي؟ وهو ما يجعل عقل المشاهد مثقلاً بكثرة الأسئلة. وفجأة يحدث أمر يغير مسار الأحداث، ويكشف المشاعر، ويخرج كل ما هو في الباطن إلى السطح، عندما يرن جرس باب العمارة ذات ليلة، ورنا بمفردها في الشقة، وتظن أن الطارق هو زوجها، فتفتح باب الشقة وتدخل الحمام؛ لتستحم ريثما يصعد إلى السطح. وبعد ساعات يعود عماد للشقة، فيجد آثار دماء على سلم العمارة وحتى الحمام، ويرى زوجته ممددة على أرض الحمام والدماء تسيل من رأسها، إثر تعدي شخص عليها بالضرب، فيهرع بها إلى المستشفى.

ورغم نجات رنا من الحادث، الذي لم يترك إصابات جسيمة على جسدها سوى جرح بسيط بجوار حاجبها الأيسر، إلا أنه في المقابل ترك جروحاً غائرة في روحها، أصبحت حزينة وكثيرة البكاء، وتخاف البقاء وحدها في المنزل. يضع كل ذلك ضغوطاً أكثر على عماد، بالتزامن مع انطلاق المسرحية، التي تؤكد رنا قدرتها على المشاركة

فيها، إلا أنها تنهار على المسرح في يوم الافتتاح، ويتم إلغاء العرض، قبل أن تُستبدل رنا بممثلة أخرى.

يكشف عماد أن الشخص الذي هاجم رنا قد ترك هاتفه ومفتاح سيارته داخل شقتهما، كما لو كان قد غادرها مسرعًا. ينزل عماد الشارع ويجرب المفتاح في جميع السيارات القريبة من العمارة، حتى يعثر في النهاية على سيارة نقل صغيرة استجابت للمفتاح.

تدور بقية أحداث الفيلم حول رحلة عماد للبحث عن هذا الشخص. يرفض إبلاغ الشرطة، لخوفه وخوف زوجته؛ مما قد يعتقده الآخرون، ويفضل الانتقام بطريقته الخاصة، فهذا الشخص عرض حياة زوجته للخطر، وانتهاك عرضها الذي هو عرضه أيضًا.

يسيطر شعور الانتقام على عماد، ويبدأ في التعامل بحدة مع كل الأشخاص الذين يعرفهم. يهين بقسوة تلميذًا في المدرسة، بدر منه تصرف أحمق، ويستغل دوره على المسرح في سب وإهانة زميله، الذي ساعده في العثور على الشقة، وذلك لأنه لم يخبره بأن المستأجرة السابقة كانت سيدة سيئة السمعة، ولكن الجمهور اعتقد أن ما جرى جزء من المسرحية. وأخيرًا يصل عماد إلى الفاعل، وهو رجل تعدى الستين، كان على علاقة غير مشروعة بالمستأجرة السابقة للشقة. يُنكر الرجل اغتصاب الزوجة، ولا يجد عماد سوى وسيلة وحيدة للانتقام، هي أن يستدعي زوجة الرجل وابنته وخطيبها؛ ليعترف أمامهم بأنه كان يتردد على شقة السيدة سيئة السمعة. وتسيطر على عماد الرغبة في

الانتقام، لدرجة أن رنا تهدده بأنها ستترك البيت، لو لم يدع الرجل يرحل، وأصر على فضحه أمام أسرته. ويصاب الرجل في النهاية بأزمة قلبية، بعد أن صفعه عماد على وجهه، ولا يتحمل الرجل - المسن والمريض بالقلب - تلك الإهانة، ليموت ولتنهار الحياة الزوجية بين عماد ورنا.

في فيلم «البائع»، يغوص أصغر فرهادي في أعماق الإنسان الإيراني المعاصر، المنتمي للطبقة الوسطى، تلك الطبقة التي قد يطرأ عليها التغيير، أكثر من الطبقات الدنيا أو العليا، بحكم أنها تتغذى باستمرار من الصاعدين إليها من درجات السلم الدنيا، أو الهابطين إليها من الدرجات العليا، وبحكم ميل أفرادها أكثر من غيرهم، بالتظاهر بغير الحقيقة، تشبهاً بمن هم أعلى منهم، أو لتأكيد تميزهم عن من هم أدنى منهم.

ويركز أصغر فرهادي على التحولات النفسية، التي يمكن أن تحدث للأشخاص العاديين في مواقف الحياة الصعبة، والأزمة التي يمكن أن يتعرض لها أي شخص؛ فتكشف عن إحباطاته ومشاعره الدفينة.

أجمل ما الفيلم هو لعبة تبادل الأدوار بين الضحية والمذنب، التي جرت في نهاية الفيلم، فالزوجة هي الضحية التي يعتقد زوجها أنها قد اغتصبت، والرجل المسن هو المذنب، ولكنه سرعان ما يتحول إلى ضحية تتعاطف معه الزوجة نفسها عندما يوشك على الموت، بينما يتحول الزوج إلى مذنب!

وكان الربط بين أحداث الفيلم وأحداث مسرحية «موت بائع متجول»، التي يقوم الزوجان بدوري البطولة فيها، ربطاً ذكياً ومدهشاً؛ فالمسرحية تتناول حياة رجل مبيعات بائس، يشعر أنه لم يحقق شيئاً في حياته على الإطلاق، فيقع فريسة للاكتئاب وتسوء علاقته بولديه عندما يعترف لهما بأنه كان على علاقة بامرأة أخرى منذ سنوات، فيشعر الولدان بالغضب من خيانة والدهما، وتنهار صورته الأخلاقية أمامهما، فيما ينتحر رجل المبيعات بحادث سيارة متعمد؛ لكي تصرف شركة التأمين التعويض المالي لأسرته.

وقد مر الزوج في الفيلم بمرحلة الضعف والانكشاف نفسها وعدم السيطرة على المشاعر، التي مربها رجل المبيعات في المسرحية، كما أن حال إيران اليوم - من وجهة نظر أصغر فرهادي - لا يختلف كثيراً عن حال أمريكا الشمالية، التي أدانها أرثر ميلر في مسرحيته الشهيرة؛ فهي تحتاج إلى الهدم والبناء من جديد مثل حال المبنى المتصدع، وحال العلاقة الزوجية بين عماد وورنا.

السعادة الحقيقية

يُحكى أن رجل أعمال أمريكيًا ثريًا في السبعين من عمره، كان يجلس على كرسيه الوثير أمام بيته الشتوي الخاص على أحد أنهار المكسيك، يستمتع بالمناظر الخلابة والجو النقي، وبينما هو كذلك لفت نظره وجود صياد مكسيكي بسيط منهمك في الصيد. نظر رجل الأعمال إلى حال ذلك الصياد، فوجد مركب صيده بسيطًا وقديمًا، وكذلك أدوات الصيد التي يستعملها، كما رأى بجانبه كمية قليلة من السمك. ولما رأى رجل الأعمال الصياد يجمع أدواته ويهم بالانصراف، ناداه ليشتري منه بعض السمك وليتحدث إليه.

جاء الصياد البسيط إلى رجل الأعمال، فاشترى منه الأخير بعض السمك، ثم سأله: «كم تحتاج من الوقت لاصطياد مثل هذه الكمية من السمك؟».

قال الصياد: «أحيانًا نصف ساعة، وأحيانًا يصل الأمر إلى ساعتين يا سيدي».

فسأله رجل الأعمال: «ساعتان فقط؟».

هز الصياد رأسه بالإيجاب، وهو يتساءل في نفسه: لم يهتم هذا الثري بمثلي؟!!

فعاد وسأله رجل الأعمال: «ولماذا لا تقضي وقتاً أطول في الصيد، فتصطاد كميات أكثر وتكسب مزيداً من الأموال؟».

ردّ الصياد: «ما أصداده يكفي حاجتي وحاجة أسرتي».

فتعجب رجل الأعمال وسأله: «بهذه البساطة؟ ولكن ماذا تفعل في بقية وقتك؟».

قال الصياد بسكينة: «أنام ما يكفي من الوقت، أصحو نشيطاً، أصداد ما يكفي حاجتي، أعود لأنام القيلولة في النهار، أصحو لأقضي بعض الوقت مع زوجتي، وألعب مع أطفالي. وفي الليل أتجول مع أصدقائي في القرية ونجلس معاً، نتسامر في الليل. يا سيدي، أنا حياتي مليئة بالسعادة، ولا أحب أن يطغى عليها العمل».

هز رجل الأعمال رأسه، في سخرية من كلام الصياد البسيط، ثم قال له: «سوف أسدي لك نصيحة غالية، فأنا رجل منحه سنين عمره الطويلة خبرات كبيرة. أولاً، يجب أن تقضي معظم يومك في الصيد؛ حتى تتضاعف كمية ما تصطاده، وبالتالي يتضاعف ربحك. ثانياً، بعد فترة من الادخار تشتري مركباً أكبر وأحدث، من هذا القارب الصغير. ثالثاً، مع ازدياد أرباحك يمكنك أن تشتري عدة قوارب كبيرة للصيد. وأخيراً، ستجد نفسك بعد فترة ليست كبيرة صاحب أسطول بحري كبير للصيد. وهكذا من نجاح إلى آخر؛ حتى تصبح مليونيراً كبيراً مثلي، هذه هي السعادة الحقيقية».

سكت الصياد قليلاً، ثم سأل رجل الأعمال: «ولكن سيدي، كم أحتاج من الوقت لتحقيق مثل ذلك؟».

ضحك رجل الأعمال، وقال: «هذا يرجع إلى مدى مهارتك وبراعتك، في الغالب ما بين خمسة عشر سنة إلى عشرين سنة فحسب».

قال الصياد: «وماذا بعد ذلك؟».

فضحك رجل الأعمال، وقال: «تملك ملايين الدولارات أيها الرجل!».

نظر الصياد إلى رجل الأعمال ثم عاد وسأله: «وماذا بعد الملايين؟».

قال رجل الأعمال: «تقاعد بالطبع، تترك التجارة والشقاء لأولادك، وتستمتع ما بقي لك من العمر. تشتري بيتًا كبيرًا على الشاطئ، تسترخي فيه مع زوجتك، وتنام القيلولة التي أردت، وتلعب مع أحفادك، وتخرج ليلاً مع أصدقائك، تفعل كل ما تريد».

فقال الصياد البسيط في دهشة: «هل تعني أن أقضي عشرين عامًا من عمري، في التعب والإرهاق والعمل المتواصل، لا أرى زوجتي وأولادي إلا قليلًا، ولا أستمتع بوقتي ولا بصحتي ولا حتى بأموالي، كل ذلك أضحى به؛ لأصل في النهاية إلى ما أنا عليه أصلاً؟!».

ثم أكمل الصياد في حماس: «إذا كانت السعادة الحقيقية، كما قلت أنت، في الاسترخاء وراحة البال، والوجود في وسط الزوجة والأولاد، والاستمتاع برفقة الأهل والأصدقاء، فأنا الآن أعيش هذه السعادة الحقيقية، ولا أجد سببًا يجعلني أرجئها عشرين عامًا».

أصاب الصياد البسيط حقًا، فالإنسان لا يحتاج للانتظار إلى الغد؛ لكي يكون سعيدًا ويستمتع بحياته، ولا يحتاج حتى أن يكون أكثر ثراءً وقوة؛ لكي يستمتع بالحياة. يجب أن نستمتع بحياتنا كما هي، فتلك اللحظات التي نعيشها الآن ثمينة جدًا، ولا يجب أن نضيعها أبدًا.

يظن معظم الناس أن السعادة تكمن فقط في النهايات والنتائج؛ لنهمل بذلك الطريق والرحلة نفسها، والتي تتحول بدورها إلى سباق عَدُوٍّ محموم، يحصد معه أجسادنا وأرواحنا، ويحرمانا تذوق نكهة الحياة الحقيقية بجمالها وبساطتها.

كم منا لا يشعر بالسعادة مع تمتعه بنعم الله عليه، على اختلاف أنواعها وأشكالها، ويعتبرها من المسلمات التي لا تستوجب الالتفات إليها، يقضي عمره، يكد ويتعب باحثًا عن السعادة، معتقدًا أنها لا تأتي إلا بعد خوضه غمار حروب الحياة المادية؛ فيمضي سنوات عمره راكضًا، يلهث وراء المناصب والألقاب والثروة والنفوذ والعلاقات الزائفة؛ لتضيع مع حرابه وأنفاسه اللاهثة أحلى لحظات المودة والحب، وتلك التفاصيل الصغيرة التي لا ينتبه لها، كدعوة أم صادقة نابعة من قلب نابض بالحب، أو ابتسامة زوجة طيبة مخلصمة، أو مداعبة طفل صغير، يختصر كل مسافات العالم بين يديه، حينما يمدهما لاستقباله، أو لحظة طالما تمنى أن يرى ابنه الصغير، وقد أصبح شابًا ناجحًا كأعظم إنجازاته على هذه الأرض.

يظل الإنسان يجري ويجري، متناسيًا أن قطار العمر، عندما يسير مسرعًا على قضبانه الصلبة، مخلفًا وراءه تلك المناظر الجميلة على

جانبيه، فإنه لن يعود إليها أبدًا، ولن يستطيع استحضارها من جديد حين يقف إلا كذكرى باهتة، وكأنها ليست إلا لقطات لشريط سينمائي مر كلمح البصر أمام عينيه، دون أن يكون هو بطله الأول.

هذه ليست دعوة للكسل والتوقف عن العمل الجاد والطموح، بل إنها دعوة للتمهل قليلاً لتأمل ما يعطي الحياة معناها الحقيقي؛ فنحن لا نحتاج أن نكون أغنياء لنشعر بقيمة الحياة وسعادتها مع من نحب، والتي قد تكون أقرب إلينا مما نتصور.

ولك أيها القارئ حرية الاختيار والقرار بأن تكون الصياد أو رجل الأعمال، وأن تعيش الرحلة بتفاصيلها الدافئة الجميلة، أو تنتظر النهاية السعيدة، إذا ما تبقى لك من أجل.

دروس عملية في الحياة

الملل هو العدو الأول للطلاب، وأول ما يسبب الفوضى في الفصل هو تسرب الملل إلى نفوس الطلاب، فتختلف ردود الفعل بينهم، بين من ينام ومن يشاغب، ومن يُشغل نفسه بشيء آخر غير الدرس. لكن عندما يستخدم المعلم الحكايات والألعاب والعصف الذهني، ويفاجئ الطلاب في كل مرة بفكرة جديدة، فإن هذا يجعلهم يترقبون ما سيقوله خلال الدرس، وينتظرونه بفارغ الصبر.

تلك الوسائل المبتكرة تساعد على استثارة اهتمام الطلاب وإشباع حاجتهم للتعلم، والهدف منها هو تحويل المعلومات النظرية الجافة إلى خبرات عملية ممتعة. فالرسول ﷺ، عندما أراد أن يبين لأصحابه معنى قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، الآية الثالثة والخمسين بعد المائة من سورة الأنعام، خط لهم خطأ مستقيماً، وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خطَّ خطوطاً كثيرة عن يمينه وعن شماله، وقال: «هذه السُّبُل».

إن المعلم الناجح هو الذي يستطيع أن يجذب انتباه طلابه لموضوع درسه، أو لما يريد أن يقوله. يُروى أن مدرساً وقف أمام تلاميذه، وفتح صندوقاً أخرج منه برطماناً كبيراً فارغاً، ملاءه بالأحجار،

ثم سأل التلاميذ: «هل البرطمان الذي معي فارغ أم مملوء؟». فاتفق التلاميذ على أنه مليء، فأخرج علبة بها كمية من الحصى الصغير، وضعها داخل البرطمان ورجه بشدة؛ حتى تخلخل الحصى الصغير المساحات الفارغة بين الأحجار الكبيرة، ثم سألهم إن كان البرطمان مليئاً أم لا، فأجمعوا على أنه مملوء. فأخذ بعد ذلك زجاجة من الرمل وسكبه في البرطمان، وبالطبع ملأ الرمل بقية الفراغات فيه، وسأل طلابه مرة أخرى إن كان البرطمان مليئاً، فردوا بصوت واحد بأنه كذلك.

بعد ذلك جاء المدرس بكوب من الماء وسكب كامل محتواه داخل البرطمان، والطلبة يضحكون، فلما هدأ الضحك، راح يقول: «الآن، أريدكم أن تعرفوا ماهي القصة، إن هذا البرطمان يمثل حياة كل واحد منكم، فقطع الأحجار الأكبر تمثل الأشياء الضرورية في حياتك: قيمك، أخلاقك، عائلتك، أطفالك، أصدقاءك، صحتك، بحيث لو فقدت كل شيء وبقيت هذه الأشياء، فستبقى حياتك مملوءة وثابتة، أما الحصى الصغير الذي أضفته، فيمثل الأشياء المهمة في حياتك: وظيفتك، بيتك، ثروتك، ثقافتك، وأما الرمل فيمثل بقية الأشياء، أو لنقل الأمور البسيطة والهامشية في الحياة، ولو كنت وضعت الرمل أولاً لما تبقى مكان للأحجار أو الحصى. وهذا يسري على حياتك كلها، فلو صرفت كل وقتك وجهدك على توافه الأمور، فلن يتبقى مكان للأمور التي تهتمك؛ لذا عليك أن تنتبه جيداً، وقبل كل شيء للأشياء الضرورية لحياتك واستقرارك، واحرص على

الانتباه إلى علاقتك بربك وتمسكك بقيمك ومبادئك وأخلاقك. امرح مع أسرتك، وزر أصدقاءك وأحباءك ومارس حياتك، وثق دائماً أنه سيكون هناك وقت كاف للأشياء الأخرى».

وحين انتهى المدرس، سأله أحد التلاميذ: «ولكنك لم تحدثنا عن الماء؟»، فقال المدرس بابتسامة: «إنني سعيد لسؤالك، فقد أضفت الماء؛ لأوضح لكم أنه مهما كانت حياتك مليئة، فستبقى هناك دائماً مساحة لما يمثله كوب الماء من رياضة ورحلات واستمتاع بالفنون والهوايات الجميلة».

و ذات يوم، قرر المدرس أن يعلم تلاميذه درسا استثنائياً آخر، فحمل كوباً من الماء في يده، وسأل التلاميذ: «ماذا يحدث إذا حملت الكوب في يدي هكذا لبضع دقائق؟».

جاء الرد من تلاميذه: «لن يحدث شيئاً». قال المدرس: «صحيح، وما الذي يمكن أن يحدث، إذا حملت الكوب في يدي هكذا لمدة ساعة؟». قال أحد التلاميذ: «ستبدأ يدك في التألم». قال المدرس: «بالتأكيد، وماذا يمكن أن يحدث، إذا حملت الكوب في يدي هكذا لمدة 24 ساعة».

قال أحد التلاميذ: «سيكون ألم يدك أكبر». وقال تلميذ آخر: «من المحتمل أن تفقد الإحساس بيدك». وقال له تلميذ جالس في الصف الأخير: «سيشل ذراعك، وسنحتاج إلى نقلك للمستشفى». قال لهم المدرس: «صحيح، ولكن لاحظوا أن خلال كل ذلك، يكون وزن كوب الماء كما هو، فما الذي يسبب الألم إذاً؟».

عمَّ الصمت بداخل الفصل، وبدت الحيرة على التلاميذ، فسأل المدرس التلاميذ، وهو لا يزال يحمل كوب الماء في يده الممدودة: «ماذا عليّ أن أفعل لتجنب الشعور بالألم؟». قال له أحد التلاميذ: «ضع كوب الماء جانبًا».

صاح المدرس بقوة، وقال للتلاميذ: «أحسنتم، هذا درس، أريد منكم جميعًا أن تتذكروه جيدًا، إن المشكلات والمخاوف في الحياة تعتبر مثل كوب الماء هذا، إذا فكرت فيها لبعض الوقت لن يحدث أي شيء، ولكن إذا فكرت فيها طوال اليوم، ستشعر بالعجز، ولن تكون قادرًا على فعل أي شيء، تذكروا، من المهم أن تتحرروا من مشكلاتكم ومخاوفكم، وأن تضعوا كوب الماء جانبًا».

يحكي الناقد الأدبي الكبير الدكتور رشاد رشدي (1912-1983)، أنه عندما كان طالبًا في اليسانس بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليًا) في الثلاثينيات من القرن الماضي، كان يدرس المدارس الأدبية المختلفة، على يد أستاذ إنجليزي، وكان هذا الأستاذ يساريًا ماركسيًا منحازًا في محاضراته لمدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب، وكان الطالب رشاد رشدي على النقيض من أستاذه، منحازًا لمفهوم الفن للفن، الذي يعتبر أن وظيفة الفن هي تحقيق الجمال، بعيدًا عن أي قضية سياسية أو اجتماعية، وفي هذا الوقت كان الصراع مشتعلًا بين المدرستين: الواقعية الاشتراكية والفن للفن.

وكان موعد الامتحان، ودخل رشاد رشدي ليمتحن أمام أستاذه الإنجليزي امتحانًا شفويًا، ولما سأله عن الواقعية الاشتراكية، انهال

رشاد رشدي عليها بالنقد الشديد، وظل الأستاذ يتابعه باهتمام، وهو يسفه في الواقع أفكاره، التي ألقاها على الطلبة في محاضرات عديدة، ثم شكره وصرفه، وظهرت النتيجة، فإذا بالأستاذ الإنجليزي يعطي رشاد رشدي الدرجة النهائية. فرح رشاد رشدي بنجاحه وتفوقه جدًا، ولكنه كان مندهشًا من النتيجة، فذهب إلى أستاذه شاكرًا ومستوضحًا، فقال الأستاذ وهو يتسّم: «إن وظيفتي هنا ليست أن أجعلك تفكر مثلي، ولكن أن أعلمك كيف تفكر، أنت لا توافق على آرائي، فنحن مختلفان حول مفهوم الفن، ولكنك استطعت أن تدافع عن رأيك بمنطق علمي واضح، ولذلك فأنت تستحق الدرجة النهائية».

هذا هو المعلم المربي، الذي لا يقتصر دوره على مجرد التدريس والتلقين، ونقل المعارف والمعلومات إلى طلابه، بل إنه يسهم أيضًا في بناء شخصيتهم الحرة المستقلة.

أن تعطي دون مقابل

يذكر الفنان الإنجليزي شارلي شابلن، أعظم ممثل كوميدي في تاريخ السينما، أنه حينما كان صغيراً، ذهب برفقة أبيه لمشاهدة السيرك، ووقفوا في طابور طويل لحجز التذاكر. وكان أمامهم عائلة مكونة من ثمانية أشخاص الأب والأم وستة أولاد، وكانت تبدو عليهم مظاهر الفقر، ولكن الأطفال كانوا في حالة سعادة؛ لأنهم سيذهبون لرؤية السيرك، وتقدم الأب إلى الشباك وسأل عن سعر تذكرة الدخول، وبعد رد عامل الشباك عليه، صمت الأب ونظر إلى الأرض نظرة بؤس وحيرة، ونظر إلى أطفاله وهو يحبس دموعه، وهمس في أذن زوجته التي أخذت تجمع أولادها لتعود، وهنا أخرج والد شابلن جنيهاً ورماه على الأرض، ثم انحنى والتقطه وأعطاه للرجل وقال له: «لقد سقط منك هذا، إنها نقودك»، وابتسم في وجهه وهو يربت على كتفه، وسقطت دموع الرجل واحتضن والد شابلن، ولكن الأروع أنه أخذ ابنه وخرج من الطابور؛ لأنه لم يكن معه سوى هذا الجنيه، وهنا يقول شارلي شابلن، لقد كان هذا أعظم عرض رأيته في حياتي، لقد علمني والدي كيف أحب وأعطي دون مقابل، وكيف أقدم السعادة للآخرين.

قصة أخرى عن الحب والعطاء دون مقابل، تعود إلى القرن الخامس عشر، في إحدى القرى القريبة من مدينة نورنبرج بألمانيا، كانت هناك عائلة تتكون من والدين وثمانية عشر طفلاً في حالة صعبة من الضيق والفقر، حتى إن الأب لم يعد قادراً على سداد احتياجات أطفاله من الطعام، ورغم هذه المأساة، إلا أن الأخوين الكبيرين كانا يملكان موهبة الرسم، واشتهرا في القرية بتلك الموهبة، فاهتمت بهما مدرسة القرية، ونجحا في إتمام دراستهما بتفوق، وجلس الأخوان وسط عائلتهما الفقيرة، يحلمان بإتمام دراستهما الفنية في أكاديمية نورنبرج، وسقطت من عيون الوالد دموع القهر وضيق ذات اليد، فقد كان بالكاد يستطيع أن يطعم أسرته، فكيف سيوفر نفقات الدراسة الباهظة بالأكاديمية الفنية العريقة، وهنا جاءت فكرة للأخوين أن يجريا قرعة بينهما، على أن يعمل أحدهما في مناجم الفحم، ويتكفل بمصاريف أخيه الآخر لمدة أربعة أعوام في الأكاديمية، ثم يعود الآخر ليتكفل بدوره بمصاريف أخيه، وبعد القداس يوم الأحد، أجريت القرعة، وفاز بها الأخ الأصغر ألبريشت، فذهب إلى الأكاديمية، بينما ذهب أخوه الأكبر إلى المناجم ليعمل بها أربعة أعوام.

وتمر الأيام ويعود ألبريشت فناناً ناجحاً ذا شأن في عالم الرسم، وأقامت له القرية احتفالاً كبيراً مع أسرته، وبعد نهاية الحفل احتضن ألبريشت أخاه، وقال له: «لولا عمليك وتعبك، لما استطعت أن أنجح في دراستي وأحقق هذا التفوق، والآن حان دورك لتذهب

أنت وتدرس، وسأعمل أنا في الرسم وسأبيع لوحاتي وأرسل لك المصاريف».

ولكن الأخ ابتسم ابتسامة هادئة، وقال، وهو يحتضن أخاه: «يكفيني أنك قد نجحت، فلم يعد لدي أي إمكانية للتعلم أو الرسم»، فانزعج ألبريشت، وقال بلهجة غاضبة: «ما الذي تقوله! لقد كان هذا اتفاقنا: أن أدرس أنا أولاً، وتعمل أنت، ثم أعمل أنا وتدرس أنت، فموهبتك لا تقل عن موهبتي، إن لم تكن أعلى»، فرفع الأخ يديه أمام ألبريشت، وقال له: «أربعة أعوام في المناجم حطمت عظام يدي، فلم أعد أستطيع أن أمسك بفرشاة أو أتحكم في قلم»، وانهار ألبريشت، وهو يشعر بأنه قد سرق حلم أخيه، وأنه قد استحوذ على كل شيء، ولم يعد لأخيه شيئاً.

وذات يوم، مر ألبريشت على حجرة أخيه، فوجده راكعاً يصلي، ويداه مضمومتان متضرعتان، وقد بدت عليهما كثرة التجاعيد وتكسير العظام، فتسارعت أنفاس ألبريشت، ودق قلبه بسرعة وشعر برهبة شديدة، وهنا أخذ أدواته ورسم تلك اليدين كتكريم لهما، فلولاهما ما صار هو ألبريشت دورر (1471 - 1528) الفنان الشهير، وأطلق على اللوحة اسم «يدان مصليتان»، وتمر الأعوام لتصير هذه اللوحة، التي رُسمت في عام 1508 هي إحدى أعظم لوحات الفنان الألماني العظيم ورمزاً للحب والعطاء دون مقابل.

نحن عندما نعطي دون مقابل، فإننا في الواقع لا نعطي ولكننا نأخذ، نأخذ تلك المشاعر الممتنة ممن أمددناهم بعطائنا، فنسقي بها عطش

قلوبنا، لترتوي من ذلك الفيض، فيض العطاء، فما معنى العطاء؟

العطاء أن لا تعيش لأجل نفسك فقط، العطاء أن تمنح الآخرين بعضًا مما لديك. العطاء أن تقدم لغيرك ما تجود به نفسك، من غير سؤالهم إياك. العطاء ألا تنظر لقيمة ما ستعطي، ولكن أن تنظر إلى مقدار ما سيحدثه ومدى تأثيره. العطاء أن تبادر بتقديم كل ما تستطيع لمن تحب؛ لتعلمه بمدى مكانته عندك ومدى تقديرك وحبك له. العطاء أن تفرح بفرح من حولك لما قدمته لهم. العطاء مادي ومعنوي، والتنويع بينهما أمر جميل، ولكن الأجمل لو أنك قدمت كلاً منهما بفسن، فتعطي عطاءً ماديًا بقالب معنوي صادق. العطاء الصادق، حينما تعطي دون أن تشعر أنك مرغم على ذلك، والعطاء الحقيقي حينما تعطي ولا تنتظر أي مقابل. العطاء نهر لا يتوقف وبحر لا ينضب.

ضرورة أن نخطئ

نحن نخطئ لأننا بشر. نحن نخطئ لأننا لا نعرف إلا أقل القليل، ونخطئ لأننا نتخيل أننا نعرف أكثر مما نعرف بالفعل. نحن نخطئ عندما نتجاهل أهمية اللحظة، ونخطئ عندما لا نفكر إلا في اللحظة الراهنة فقط. نحن نخطئ عندما نتسرع، وبالمثل نخطئ عندما نصبر صبراً طويلاً. نحن نخطئ نتيجة لجراتنا وأحلامنا، كما أننا نخطئ نتيجة لجبننا ومخاوفنا. نحن نخطئ عندما يملؤنا الطموح، ونخطئ عندما ينقصنا الطموح. إننا نخطئ لأسباب مختلفة ومتعددة. هناك بعض الهفوات التي تخرجنا للحظة أو لحظتين، كما أن هناك بعض الأخطاء الفادحة، التي تصيبنا بالضيق والندم لسنوات، وربما لعقود. لكن مهما كان سببها أو درجتها، فهناك قاسم واحد مشترك في كل أخطائنا، وهو: إنها فرص للتعلم، سبل للمعرفة، ووسائل لتراكم الخبرة.

عندما نجيب إجابة خاطئة عن أحد أسئلة الحياة، التي لا حصر لها، فإننا على أسوأ الفروض نقرب خطوة واحدة صوب الإجابة الصحيحة، أو على الأقل الإجابة المناسبة لنا. عندما نخذل أنفسنا بالتكاسل أو الإهمال، فإن الغضب الذي نشعر به هو تذكير صحي لنا؛ حتى نحافظ على يقظتنا. عندما نخفق ثم نواجه عقبات إخفاقنا،

تسنع لنا فرصة اكتشاف ما فشلنا فيه، وسبب هذا الفشل. وباختصار، فإن أخطاءنا هي سبيل تطورنا.

إن الكثيرين، خاصة في الأوقات العصيبة، يبدوون خائفين بشدة من ارتكاب الأخطاء، كما لو كان الخطأ عارًا شخصيًا، لن يبرأ منه الإنسان أبدًا، وأنه وصمة العار التي ستظل باقية دومًا في تاريخ حياتهم، ولكن هذا ليس صحيحًا، فالأخطاء نادرًا ما تكون دائمة، وأغلبها يمكن إصلاحه بسهولة أو بصعوبة أقل من المتوقع، كما لا يوجد في الأخطاء ما يعيب. يقول الأديب الفرنسي أناتول فرانس: «إن الجهل والخطأ ضروريان للحياة مثل الخبز والماء».

إن سمحنا لأنفسنا أن يسيطر علينا الخوف من ارتكاب الخطأ، فإننا لن نسير إلا في الطرق المعتادة، التي خطا عليها الكثيرون قبلنا. إن رفضنا أن نمح أنفسنا بعض الحرية لنخطئ، فإننا بذلك سنتجنب انتهاز الفرص، وإذا لم ننتهز الفرص، فربما لن نكتشف ما نشغف به أو نعرف حقيقتنا. إن خفنا من أن نتعث في طريقنا، فلن يمكننا إلا أن نتبع الآخرين وحسب. إذا كنت قد أخفقت أكثر من الآخرين، فهناك احتمال جيد أنك تحيا بشكل كامل أكثر منهم؛ فأولئك الذين يقتنصون فرصًا أكثر، ويجرؤون على أن يصبحوا أكثر مما هم عليه، ويقومون بأكثر مما يقوم به الآخرون، من الطبيعي أن يمروا بإخفاقات أكثر. يقول ناشط الحقوق المدنية الأمريكي بوكرتي واشنطن: «لقد تعلمت أن النجاح لا يقاس بالمنصب الذي وصل إليه المرء في الحياة، ولكن يقاس بالعقبات التي تغلب عليها، وهو يحاول النجاح».

إنني، بصفة شخصية، أفضل أن يكون لديّ الشجاعة لأجرب شيئًا، ثم أخطئ على ألا أجرب شيئًا مطلقًا، وهذا هو جوهر النجاح الحقيقي في الحياة، كما ذكر هيرودوت بحكمة بالغة: «لأن نتحلى بجرأة، ونخاطر بمواجهة نصف الشرور التي نتوقعها، لأفضل لنا من أن نظل في خمول وجبن؛ خوفًا مما قد يحدث لنا».

معظم الناس يقضون أفضل سنوات حياتهم في نطاق ما يعرفونه. يفتقدون شجاعة المغامرة للخارج نحو المناطق المجهولة، ويخافون من ترك الحشد. يريدون أن يتوافقوا، ويخشون أن يتميزوا. يرتدون ما يرتديه الجميع، يفكرون كما يفكر الجميع، ويتصرفون كما يفعل الجميع، حتى لو كان القيام بذلك لا يبدو صحيحًا بالنسبة لهم. يعارضون حس قلوبهم وتجربة أشياء جديدة، رافضين أن يتركوا شواطئ الأمان. وهكذا يقومون بما يقوم به كل شخص سواهم، ويفعلهم ذلك تبدأ أرواحهم، التي كانت ذات مرة مضيئة في الإظلام والإعتام.

إن التمسك بشاطئ الأمان في حياتك، ليس أكثر من اختيارك البقاء مسجونًا في مخاوفك، داخل الصندوق الذي تحولت إليه حياتك. حين تترك الصندوق نحو آفاق جديدة، وتتوقف عن السير وراء الزحام. بالطبع، ستطفو مخاوفك فأنت بشر، ولكن الشجاعة تتطلب أن تشعر بهذه المخاوف، ثم تكمل سيرك على كل حال. يقول الأديب الأمريكي مارك توين: «ليست الشجاعة هي غياب الخوف، بل الشجاعة في السيطرة على الخوف والتحكم فيه».

إن الإنسان الذي يعيش دائماً داخل صندوقه الآمن، ويتمسك فقط بما يعرفه، يصبح ضمن الأحياء الأموات. أما حين يغامر في المجهول، ويستكشف مناطق جديدة، فإنه يعود للحياة، ويبدأ قلبه في الخفقان مرة أخرى.

كان كريستوفر كولومبس أول إنسان يرى العالم الجديد؛ لأنه كان مستعداً لترك الأماكن التي عرفها، والذهاب إلى الأماكن التي أخافته، الأراض الجديدة. وكل الاكتشافات والاختراعات العظيمة هي نتيجة رجال تجرأوا لي تجربوا المجهول. أنت أيضاً في حاجة للسير نحو مخاوفك، وأن تكون مستعداً للذهاب إلى أماكن جديدة، لكي تكبر كشخص، وتكتشف الكنوز التي تنتظر كإنسان. ومعنى أن تعيش في العالم الذي دائماً ما عشت فيه، هو أن تبقى صغيراً وجباناً.

وحتى إن عشت حياتك بحذر بقدر الإمكان، فإنك سوف تخطئ على كل حال، فالجميع يخطئون. إن الأخطاء حتمية، فهي جزء من الحياة؛ لذا يجدر بنا أن نتقبلها بصدر رحب، وأن نسامح أنفسنا، ونستمر في حياتنا. قال الرسول ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

إذا كانت الحياة هي ما تصنعه أيادينا، وإن أردنا لحياتنا أن تكون مشرقة وحقيقية، فعلينا تقبل حقيقة أننا سنخطئ بين الحين والآخر، على طول الطريق. لا يمكننا أن نمنع الأخطاء، ولكن بإمكاننا أن نتقبلها، ونعترف بها حال حدوثها، وأن نسامح أنفسنا لارتكابها، والأهم، أن نتعلم منها، فلا يجب أن يضيع أي خطأ بلا فائدة أبداً.



هل سبق أيها القارئ أن سببت لنفسك الذعر حول شيء ما لم يحدث مطلقاً؟ أو أصبت نفسك بحالة من الهلع حول شيء ما اعتقدت أنه قد يحدث يوماً، إلا أنه لم يحدث أبداً؟ أو أخبرت نفسك قصصاً مخيفة ستحدث لك في المستقبل البعيد؟ أو تصورت ما ستفعله إذا خسرت وظيفتك، أو أصبت بمرض عضال، أو فقدت شخصاً عزيزاً عليك؟ إذا كنت قد فعلت ذلك، أو تفعله الآن، فمرحباً بك في نادي القلق، الذي ربما يكون النادي الأكبر على سطح كوكب الأرض، فجميع البشر تقريباً أعضاء به!

ماذا بوسعنا أن نفعل لكي نتوقف عن القلق؟! هل من طريقة ناجحة للتوقف عن القلق الذي يفسد كل حياة هائلة ويعيق كل حياة سعيدة؟! .. في هذا الكتاب، قد تجد إجابة على هذا السؤال.

جلال الشايب: كاتب ومدرس بكلية الفنون الجميلة جامعة حلوان. ولد في القاهرة عام 1970، وتخرج في كلية الفنون الجميلة عام 1993، وحصل على درجة الدكتوراه في عام 2008. أصدر أربعة كتب: "تاريخ العمارة الداخلية الحديثة" عام 2010، "دفتر الغضب: يوميات شخص عادي شارك في الثورة" عام 2013، "مقالات ومقولات" عام 2015، ورواية بعنوان "عناق على كوبري قصر النيل" عام 2018.

